مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

الفكر العربي

[illegible] تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١ — العدد الثالث والعشرون — السنة الثالثة

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان
ص.ب المجلة: ١٤/٥٦١٤ ص.ب المعهد: ١٤/٥٣٠٠
تلكس: LE ٢٢٢٤
هاتف: ٨٣١٠٢٥
٨٣١٠٢٦

الهيئة القومية للبحث العلمي
ص.ب ٨٠٠٤ هاتف: ٣٤١٣٤ / ٣٦٠١٣
طرابلس
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

[illegible]

جوانب من الفكر السياسي للسان الدين ابن الخطيب (*)

د. وداد القاضي

عندما يريد الدارس أن يستقرىء بعض جوانب الفكر السياسي لوزير غرناطة الكبير ومؤرخها لسان الدين ابن الخطيب، فإنّ عليه أن يستذكر تواريخ هامة في حياة هذا الرجل، هي على التوالي:

* ١٣١٣/٧١٣ : ولادة ابن الخطيب في لوشة، قرب غرناطة.
* ١٣٤٠/٧٤١ : دخوله لأول مرة في سلك وظائف الدولة، إذ عُيّن في تلك السنة كاتباً لدى بني نصر بغرناطة.
* ٧٤٩ - ١٣٤٨/٧٦١ - ١٣٦٠ : وزارته ثلاث مرات لثلاثة من سلاطين بني نصر بغرناطة، هم:
  - أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣ - ١٣٣٣/٧٥٥ - ١٣٥٥).
  - محمد الغنيّ بالله (٧٥٥ - ١٣٥٥/٧٦٠ - ١٣٥٩).
  - أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (٧٦٠ - ١٣٥٩/٧٦١ - ١٣٦٠).
* ٧٦١ - ١٣٦٠/٧٦٣ - ١٣٦٢ : نفيه الأوّل من غرناطة إلى حضرة بني مرين بالمغرب.
* ١٣٦٢/٧٦٣ : عودته إلى غرناطة وزيراً للغني بالله، بعد إعادة الغنيّ إلى السلطة، وقد بقي ابن الخطيب في هذا المنصب حتى سنة ١٣٧٢/٧٧٣.

(*) نشرت صورة أولية من هذا البحث باللغة الإنجليزية، في كتاب:
La signification du bas moyen âge dans l'histoire et la culture du monde musulman, (Aix-en-Provence: Esidus, 1978). pp. 205-217
وذلك ضمن إطار أعمال المؤتمر الثامن للاتحاد الأوروبي لعلماء الدراسات العربية والإسلامية الذي انعقد في مدينة إكس أن بروفانس، بفرنسا، في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٦.

★ ٧٧٣ - ١٣٧٢/٧٧٦ - ١٣٧٥ : خروجه منفياً نفياً طوعياً من غرناطة إلى المغرب مرة ثانية.

★ ١٣٧٦/٧٧٦ : مقتله[١].

ولقد تميزت حياة ابن الخطيب السياسية بنشاط وحيوية كبيرين، جعلاه يحظى بقدر عظيم من النفوذ، وأنالاه لقب «ذي الوزارتين»[٢] بل إنهما جعلا من غير الممكن تقريباً دراسة تاريخ غرناطة السياسي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) من دون اعتباره قطب الرحى في ذلك التاريخ. غير أنه كان لابن الخطيب لقب آخر نُبز به هو «ذو العُمْرَيْن»[٣]، لأنه - فيما يُقَدَّر - كان يصرف «عُمْراً» في تأدية مهامّه موظفاً كبيراً في الدولة، وهذا كان أهمّ ما يشغله في النهار، ويصرف «عمراً ثانياً» في القراءة والتأليف في معظم العلوم المعروفة آنذاك، إن لم نقل كلها، وكان هذا أهمّ ما يشغله في الليل؛ إذ يروى أنه كان يقضي معظم لياليه ساهراً لا ينام[٤]. ولقد كان موضوع السياسة من الموضوعات المحبّبة إليه، وفيها كتب عدداً من المؤلفات: أربعة منها بالعربية، وواحد وصلنا بالإسبانية مترجماً من اللغة القشْتالية. وسوف أعالج في القسم الأول من هذا البحث مؤلفات ابن الخطيب السياسية العربية، بينما أعالج في الثاني مؤلّفه الصغير بالقشتالية.

* * *

I

حفظت لنا المصادر - ومن بينها ما كتبه ابن الخطيب بقلمه عن حياته ومؤلفاته - أسماء أربعة مؤلفات له في السياسي هي:

أ) كتاب «بستان الدول».

ب) أرجوزة بعنوان «تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة»، وتذكر أيضاً باسم «أرجوزة في السياسة المَدَنية»، أو - ببساطة - «رَجَز في السياسة».

جـ) رسالة تعرف باسم «مقامة في السياسة» أو «رسالة في السياسة» أو «رسالة في غرض السياسة».

د) رسالة بعنوان «الإشارة إلى أدب الوزارة»، ويشار إليها أيضاً باسم «كتاب الوزارة»[٤].

هذه المؤلفات لم يصلنا منها سوى المؤلّفين الأخيرين[٥]. أما المؤلّفان الأوّلان فإنهما، وإن لم يصلانا، فإنّ لدينا وصفاً لهما مما كتبه ابن الخطيب عنهما. أما «الأرجوزة» فمن المفترض أنها مؤلفة من نحو ٦٠٠ بيت، وتعالج موضوع السياسة باعتباره فرعاً من فروع «العلم القديم» (يعني الفلسفة)، وقد استوفى ابن الخطيب فيها الكلام في القوى النفسيَة الثلاث، وعلاج الأخلاق والمعاش[٦]. وأما كتاب «بستان الدول» فهو كتاب كبير، أكمل منه ابن الخطيب ثلاثين جزءا، كل جزء منها يقارب السِّفر حجماً، وهو يشتمل على «شَجَرات»

عشر: أولاها شجرة السلطان، وثانيتها شجرة الوزارة، وثالثتها شجرة الكتابة، ورابعتها شجرة القضاء والصلاة، وخامستها شجرة السلطة والحسبة، وسادستها شجرة العمل، وسابعتها (وثامنتها؟) شجرة الجهاد (وهي فرعان: أسطول وخيول)، وتاسعتها؟ شجرة ما يُضْطَرُّ بابُ الملك إليه من الأطباء والمنجّمين والبيازرة والبياطرة والفلاّحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنّين، وآخرها شجرة الرعايا. قال ابن الخطيب: «وتقسيم هذا كله غريب، يرجع إلى شعب وأصول، وجرائيم وعمد، وقشر ولحاء، وغصون وأوراق، وزهرات مثمرات وغير مثمرات، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء اسم الفنّ المراد به وبرنامجه صورة بستان»[٧]. وهذه الأوصاف لكل من أرجوزة ابن الخطيب وكتابه «بستان الدول» على ما فيها من تفصيل، لا تمكّن الدارس من تحديد مضمونها بدقة. غير أنه يمكن الافتراض بشيء من التأكيد أنّ الأرجوزة تنظر إلى السياسة من منظور فلسفي يوناني إسلامي، فيا يحتوي كتاب «بستان الدول» على آراء ابن الخطيب السياسية مدعومةً بحكايات وروايات وأقاويل من فنّ الأدب، إذ هذا هو ما يمكن أن يفسّر ضخامة الكتاب.

ويبقى المؤلّفان الآخران لابن الخطيب في السياسة: المقامة في السياسة، والإشارة إلى أدب الوزارة، وكلاهما يجب أن يكون تأليفهما قد تمّ في مرحلة متأخرة من حياة لسان الدين، بين سنتي ١٣٦٧/٧٦٨ و١٣٧٠/٧٧١[٨]. وقد وصلا إلينا عن غير طريق: إمّا بشكل أعمال مخطوطة مستقلة[٩]، أو بشكل نصوص مضمّنة في بعض كتب ابن الخطيب الكبيرة[١٠]، أو بشكل نقول كاملة في مصادر متأخرة[١١]. وليس هناك من تفاوت ملحوظ في القراءات بين نصوص هذين المؤلّفين برواياتهما المختلفة. ولذلك يكفي - بشكل عام - أن يعتمد المرء على نصّ واحد لكل واحد منهما[١٢]. أما المقامة فقد أشار إليها ثم لخّصها الأستاذ محمد بن أبي بكر التطواني، وكذلك فعل أيضاً مؤخّراً الدكتور شوقي ضيف منوّهاً بقيمتها الأدبية والسياسية[١٣]، ثم درسها درساً فيه شيء من التفصيل،المستشرق الدكتور دجلاس مورتون دنلوب[١٤]. وأما كتاب الإشارة، فإنّ أحداً من الدارسين لم يتعرض لدراسته فيا وصل إليه اطلاعي.

وينتمي كلٌّ من المقامة في السياسة وكتاب الإشارة إلى أدب الوزارة إلى النوع الأدبي المسمّى «أدب مَرايا الأمراء»، فكلاهما مكتوب بصيغة المخاطَب، وكلاهما موجّه من الكاتب إلى رجل في السلطة، وكلاهما يحتوي على نصائح موجّهة إلى ذلك الرجل تُبيِّن له كيف يجب أن يتصرّف في مختلف الحالات التي يمكن أن يكون فيها، ومع مختلف الجماعات التي يمكن أن يتعامل معها. على أنه في حين أن المقامة موجّهة إلى ملك أو سلطان، فإن كتاب الإشارة موجّه إلى وزير؛ ففي المقامة هناك نصائح للملك أو السلطان في كيفية اختيار الأشخاص والجماعات الذين يؤلّفون جهاز دولته، وفي كيفية معاملتهم أيضاً: رعيّته، ووزيره، وعمّاله، وولده، وخدمه، وحَرَمه؛ كما أن هناك إرشادات للملك في كيف يكون حكماً بين رعيّته، وكيف يحفظ الأموال الموضوعة في عهدته، ومَنْ هي الجماعات التي يُدخلها إلى حضرته، وكيف يلتزم العدل ويحسن الإدارة

ويستعمل الحكمة ويعمل بجدّ، وكيف يتصرف مع عدوّه في الحرب والسِّلم، وكيف يراقب رعيّته فلا تذرّ العداوة بقرنيها فيا بينهم. وفي كتاب الإشارة يبيّن المؤلف رفعة خطة الوزارة، ثم يعدّد الصفات والمؤهلات التي يجب على الوزير أن يتحلى بها، وبعد ذلك تجيء نصائح للوزير في كيف يتصرف مع نفسه، ومع ملكه، ومع حسّاده من مُجالسي الملك، ومع سائر خاصة الملك، بما في ذلك ولده وحرمه.

وللوهلة الأولى يبدو أن الرسالتين توفّران للدارس مادة طيبة للفكر السياسي الأصيل للسان الدين ابن الخطيب. إلاّ أنّ التدقيق فيهما ومقارنتهما بغيرهما من نصوص الفكر السياسي الإسلامي، يشيران إلى أنهما ليستا عملين خالصي الأصالة. ولقد أشار المستشرق دنلوب إلى أن المقامة هي صورة معدَّلة من قسم من كتاب في السياسة منحول إلى أفلاطون، ترجمه في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أحمد بن يوسف ابن الداية كاتب ابن طولون (ـ ٣٤٠/٩٥١)، بعنوان: «كتاب السياسة لأفلاطون»، أو «كتاب العهود اليونانية المستخرجة من كتاب السياسة لأفلاطون» والمقامة المذكورة لابن الخطيب تشكّل في حقيقة الأمر تطويراً للعهد الأول من هذا الكتاب، وعنوانه «عهد الملك إلى ابنه»[١٥]. كذلك ليس كتاب الإشارة سوى صورة أخرى ـ وإن معدّلة ـ من العهد الثاني في الكتاب المنحول إلى أفلاطون نفسه، وعنوانه هنالك «عهد الوزير إلى ولده»[١٦].

ولما كان وضع مؤلّفَي ابن الخطيب السياسيين على هذه الشاكلة، لا بدّ للدارس أن ينظر إليهما منزاوية مختلفة خاصة: عليه أن يدقق في نصّيهما تدقيقاً شديداً، ويقارن بين كل جملة فيهما برديفتها في النصّ المأخوذ عن اليونانية. إذ ذاك، حَسْبُ، يستطيع أن يقرّر ما إذا كان فيهما أي آراء خاصة أصيلة بصاحبهما لسان الدين ابن الخطيب.

ويدلّ تفحّص نصيّ «المقامة» و«الإشارة» ومقارنتهما بالنصين المنسوبين إلى أفلاطون أنّ ابن الخطيب اعتبر مؤلّفيه عملين أصيلين له، وهذا ما ينصّ عليه نصّاً في الجملة الأولى من المقامة حيث يقول: «ومما صَدَرَ عنّي في السياسة، وكان إملاؤها في ليلة واحدة...»[١٧]. والحقيقة أنه حتى بعد أن يطّلع الدارس على الصلة الوثيقة بين المقامة وكتاب الإشارة من ناحية، وبين النصين اليونانيين من ناحية أخرى، لا يستطيع أن يتهم ابن الخطيب بالسرقة أو بالتزوير، وذلك بعد أن يأخذ بعين الاعتبار التايز بين فئتي المؤلفات هذه من ناحية الشكل الكلي ومن ناحية أجزاء المضمون. فابن الخطيب لم ينسخ النصين اليونانيين وإنما أخضعهما لتغييرات عدة، تدل جميعها، سواء أجاءت إضافة أو حذفاً أو تعديلاً في الفكرة، على أنّ ابن الخطيب كان على وعي دقيق بما يريد أن يعتمده من النصوص أساساً لعمله. ومن الملاحظ ـ بالإضافة إلى ذلك ـ أن ابن الخطيب اختار من ضمن النصوص السياسية العديدة المعروفة في الثقافة الإسلامية حتى عصره، نصوصاً يونانية لا نصوصاً فارسية، ونصوصاً منحولة لأفلاطون لا لأرسطوطاليس، ولا بدّ أنه كان على وعي دقيق بأن ما يريد أن يطوّره من النصوص يجب أن يكون مما يتفق وحاجاته، ويناسب أفكاره السياسية في آن معاً.

ويلاحظ الدارس أنّ التغييرات التي أجراها ابن الخطيب على النصوص اليونانية التي اعتمدها إنما أجراها لتخدم غاياتٍ ثلاثاً كانت تحكم فكره السياسي:

أولاً - وَضْع النصوص اليونانية في إطار عربي إسلامي.

ثانياً - جعل هذه النصوص مرآة تنعكس فيها تجربة ابن الخطيب السياسية.

ثالثاً - تطويع النصوص بحيث تؤكد على أهمية الناحية التطبيقية في الفكر السياسي أكثر من الناحية النظرية، وخاصة فيا يتعلق بدور الوزير المميّز ناصحاً وموجهاً فيها.

أولاً - وضع النصوص اليونانية في إطار عربي إسلامي:

هذه النزعة لدى ابن الخطيب نزعة مفهومة الدوافع والبواعث، وتسير في خط متواز مع النزعة الكلاسيكية العامة في الأدب السياسي العربي الذي أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم، وهي إلى ذلك تسعف في جعل عمل ابن الخطيب في رسالتيه مفيدا وقابلاً للتطبيق في الدولة الإسلامية في غرناطة. وحيث إن ابن الخطيب كان كاتباً معروفاً بأسلوب متميّز خاص، فإنه عمد إلى صياغة مؤلّفيه بأسلوب مسجّع مركّب، كان بمقدوره أن يظهر فيه تفوّقه بين أهل زمانه وبين المؤلفين المسلمين عامة. ويبدو لي أنه إنما لجأ إلى استعمال هذا الأسلوب لكي يترك لنفسه قدراً كبيراً من حرية الحركة في تغيير ما يريد تغييره من النص الأصلي، فضلاً عن الهدف إلى جعل المقامة المسجّعة بالذات نصّاً يمكن حفظه عن ظهر قلب.

ولقد عمد ابن الخطيب في مقامته السياسية إلى استبدال الإخراج اليوناني الأولي للعمل في «عهد الملك إلى ابنه» بإخراج عربي إسلامي. أما النص اليوناني فإنّ إخراجه تمّ في إطار يوناني خاص[١٨]: كان هناك ملك يوناني قديم قبل مبْعث موسى اسمه أذريانوس، وكان معروفاً بجلالة المحلّ في الحكمة وبحسن السيرة في الرعية. ولما تقدمت به السنّ، ووقع فريسة للمرض، استدعى ابنه ووليّ عهده وكتب له رسالة نصحه فيها فيا يجب أن يكون عليه لكي يصبح ملكاً صالحاً، وتشكّل توجيهاته تلك مضمون العهد اليوناني. ولا شكّ أن ابن الخطيب لحظ الاستحالة التاريخية في إخراج هذا العهد عندما لحظ «خصوصيته» اليونانية، فأهمله إهمالاً تاماً، واستبدله بإخراج جديد تماماً:[١٩].

«سهر [هارون] الرشيد ليله، وقد مال في هجر النبيذ ميله، وجهد ندماؤه في جلب راحته وإلمام النوم بساحته، فشحّت عهادهم، ولم يغن اجتهادهم، فقال: اذهبوا إلى طرقٍ سمّاها ورسمها، وأمّهات قسمها، فمن عثر تم عليه من طارق ليل، أو غثاء سيل، أو ساحب ذيل، والأمنة سوّلوه، واستدعوه، ولا تَدَعوه. فطاروا عجالى، وتفرقوا ركباناً ورجالاً، فلم يكن إلا ارتداد طرف، أو فوارق حرف[٢٠]، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها، والبضاعة التي ربحوها، يتوسطهم الأشعث الأغبر، واللجّ الذي لا يعبر: شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة، سَبَلَتُه مُشْمَطّة، وعلى أنفه من

القبع مَطّة[٢١]، وعليه ثوب مرقوع . . . فلما مثل سلّم، وما نبس ولا تكلّم، فأشار إليه الملك فقعد، بعد أن انشمر وبعد، وجلس، فما استرقّ النظر ولا اختلس . . . فابتدره الرشيد سائلاً، وانحرف إليه مائلاً، وقال: ممن الرجل؟ فقال: فارسي الأصل، أعجميّ الجنس، عربيّ الفصل . . . قال: فَنُّك، الذي اشتمل عليه دنّك؟ فقال: الحكمة فنّي الذي جعلته أثيراً، وأضجعت فيه فراشاً وثيراً . . . قال: فتعاضد جذل الرشيد وتوفّر، كأنما أغشي وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر، وقال: ما رأيت كالليلة أجمع لأمل شارد، وأنعم بمؤانسة وارد! يا هذا، إني سائلك ولن تخيب بعد وسائلك، فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بحمل أعبائه، ومُنينا بمراوضة إبائه. فقالو: هذا الأمر قلادة ثقيلة، ومن خطة العجز مستقيلة، ومفتقرة لسعة الذّرع، وربط السياسة المَدَنية بالشّرع، يفسده الحكم في غير محله ويكون ذريعة إلى حلّه . . . فقال الملك: أجملتَ ففصّل وبَرَيت فَنَصِّل . . . واقسم السياسة فنوناً، واجعل لكل لقب قانوناً . . . ».

وبعد ذلك يأتي صلب الرسالة السياسي. وفي آخرها يرجع ابن الخطيب إلى ما بدأ به من إخراج خاص[٢٢]:

«ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف . . . ومجال الوصايا أكثر مما يصف، قال: يا أمير المؤمنين، بحر السياسة زاخر، وعمر المتمتّع بناديك مستأخر، فإنْ أذنتَ في فنّ من فنون الأنس يجذب بالمقاد، إلى راحة الرقاد . . . فقال: أمّا وقد استحسنّا ما سردت فشأنك وما أردت. فاستدعى عوداً فأصلحه حق حده، وأبعد في اختباره أَمَده، ثم حرّك بَمّه، وأطال الجسّ ثَمّه، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات، ويصدع الحصاة . . . وقال:

صـــاح مـــا أعطرَ القبولَ بلمّـــه   أتراها أطالتِ اللبثَ ثـمَّـهْ
. . .   . . .   [١٢ بيتاً]

ثم أحال اللحن إلى لون التنويم، فأخذ كل في النعاس والتهويم . . . ثم انصرف، فما علم به أحد ولا عرف. ولما أفاق الرشيد جدّ في طلبه، فلم يعلم بمنقلبه، فأسف للفراق، وأمر بتخليد حكمه في بطون الأوراق، فهي إلى اليوم تُتلى وتُنقل، وتُجلى القلوب بها وتُصقل، والحمد لله ربّ العالمين ».

وتسجيل الرشيد أقوال هذا الحكيم في الأوراق يذكّر بموقف المأمون من العهد الذي كتبه طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله[٢٣]، فيما يذكّر « تنويم » الحكيم الحضور بالعزف والغناء بما يُروى عن الفيلسوف أبي نصر الفارابي[٢٤]. ولقد لحظ المستشرق دنلوب أهمية اختيار ابن الخطيب هارون الرشيد ـ الخليفة المسلم ـ ملكاً تُوَجّه إليه النصائح السياسية[٢٥]، غير أنّ الأهمّ من ذلك في نظري اختياره الحكيم جامعاً فضائل العرب

والفرس واليونانيين: في جمعه بين اللغة، والمعرفة السياسية، والفلسفة.

فلا شك إذن في أنّ ابن الخطيب أراد أن يضع رسالتيه في إطار عربي إسلامي، ولذلك جاء ببعض الإضافات على النص اليوناني الأصلي، فاستشهد بآيات من القرآن الكريم[٢٦]، وبأبيات من الشعر العربي[٢٧]، وبأقوال عربية مأثورة[٢٨].

كذلك تظهر نزعة ابن الخطيب إلى إضفاء اللون الإسلامي على نصه باستعماله عبارات تحميد إسلامية[٢٩]، فيما يتقوى اللون العربي بزيادته فقرة عن المعنى اللغوي لكلمة «وزارة»[٣٠]، وإشارته إلى وزير المأمون العربي أبي عباد (ثابت بن يحيى)[٣١].

وهذه النزعة يجب أن تكمن خلف تغيير آخر أحدثه ابن الخطيب في مقامته السياسية، حيث أسقط منها عبارات الحكمة اليونانية الواردة في العهد المنسوب إلى أفلاطون، «عهد الملك إلى ابنه»[٣٢].

ثانياً ـ التجربة السياسية لابن الخطيب:

لقد كان ابن الخطيب من العاملين النشطين في حقل السياسة، ومن ثَم فإنه من الصعب على الدارس أن يتصور أنه كان باستطاعته أن يضع جانباً تجربته السياسية العَمَلية حتى وإن كان يعتمد نصّاً سياسياً جاهزاً. على أن صورة تجربة ابن الخطيب تظهر بوضوح في كتاب الإشارة أكثر مما تظهر في المقامة السياسية، وذلك لأن الشخص المحوري الذي يدور عليه كتاب الإشارة هو الوزير، وابن الخطيب ـ سياسياً ـ كان وزيراً قبل أيّ شيء آخر. وإنّه باستطاعة الدارس أن يستقرىء على أساس هذه التجربة معظم التغييرات التي أحدثها ابن الخطيب على النصوص اليونانية التي اعتمدها.

وتشكّل افتتاحية كتاب الإشارة، المحدِّدة لإطارها العام، أفضلَ نموذج على ذلك. أما النص المنسوب إلى أفلاطون فإنّ افتتاحيته المحدِّدة لإطاره قصيرة مباشرة[٣٣]: كان هنالك وزير لليونان بلغ سنّ السبعين وله ولد قد جاوز الثلاثين، فذهب هذا الوزير إلى ملك البلاد وأبلغه برغبته في ترك منصبه لكبر سنه، وطلب إذنه في الانصراف إلى «هيكل السلم»، حيث يجتمع الأفاضل في الدين والمعرفة. فشقّ ذلك على الملك وعلى أعلام المملكة، غير أنهم نزلوا تحت رغبته، وسألوه صرف أمر الوزارة إلى ولده، فكتب إليه عهداً يوصيه بما يجب أن يكون عليه الوزير، هو صلب الرسالة السياسية اليونانية.

أما في كتاب ابن الخطيب «الإشارة إلى أدب الوزارة» فإن الافتتاحية المحدِّدة لإطار الرسالة العام مختلفة تماماً، إذ هي طويلة سردية تفصيلية نازعة نحو الرمز تذكر المرء بطريقة سهل بن هارون في كتابه «النمر والثعلب»، في أسلوب مسجّع معقّد[٣٤]. هنا نجد أنفسنا إزاء مملكة ملكها أسَد ووزيره نمر يكنّى أبا فروة، ويعرف بالمرقّط: «كأنه بالنجوم منقّط، شثن الكفّين[٣٥]، بعيد ما بين العينين، كأن ذُناباه ذؤابة

كوكب ، أو جديلة مركب ، وكأن المجرّة أوردته غديرها ، والثريا نشرت عليه دنانيرها ، عظيم الوثوب والظفور ، حديد الناب والأظفور . . . » . ولقد استوزر ملك الوحوش هذا النمر الجسور ، ووكل إليه تدبير أمور دولته كافة ، فنال من أجل ذلك قدراً كبيراً من النفوذ . ولقد نجح الوزير في تسيير ما أوكله إليه الملك ، « فكفاه ما وراء بابه ، ودافع الأعداء من جنابه ووفّر من جبايته ، وأجرى رسوم عزّه وإبايته . . . حتى عمّت الهيبة وخصّت ، وشرقت الأعداء وغصّت ، وعرفت الوحوش أقدارها ، وألقت السياسة مرارها ، وأمنت السبل والمسالك ، وخاف الملوك سطوة المالك ، وحسنت الأخبار عن سيرته ، وشهدت بالعدل ألسن جيرته » . وبعد مرور زمن ، أسنّ النمر وضعفت همّته ، وبات يستثقل عبء الوزارة ، فمضى إلى الأسد وأعلمه برغبته في ترك منصبه وصرف الزمان في التفرّغ لآخرته ، وذكّر الأسد ـ بهذه المناسبة ـ في تطويلٍ غير قليل بأنه لم يقصّر تجاهه ولا تجاه دولته طوال مدة ولايته ، فردّ ملك الوحوش عليه بأنّه لم يتسرب إليه أي شك في إخلاصه وتفانيه ، وأنه يضع موضع التقدير كل ما فعله النمر له ولمملكته معاً ، وأخبره أنه قد أمر بعهده إلى ولده من بعده ، ونقل الوزارة من يده إلى يده ، خاصةً وأن ولده ذو حسب ونسب ، وقد استكمل « سن الوقوف » ، وعرف بالانقطاع للحكمة ، وهو « كريم الطبع ، رحيب الضرع ، طيب الأصل ، سامي الفرع ، لا تؤوده المعضلات ، ولا تواقف فطنته المشكلات ، ولا تجاذبه الشهوات ، ولا تطرق كماله الهفوات ، حانٍ على الرعية ، حفظة للشروط السياسية المرعيّة ، قد أُفرغ في قوالب الكمال جوهره ، وتطابق مخبره ومظهره ، وتفتّق عن كمال العفاف وحسن الأوصاف زهره » ، فهو مستكمل جميع الصفات المرجوّ توفرها في الوزير . ولأجل تلك المناسبة أقام الأسد وليمةً ضخمةً ، دعا إليها الأشراف وأرباب الديانة وقَوَمة الجهاد والزهاد والنسّاك ، وأبرز لهم النمر ، فاعترف الجميع بنصح صاحبه وفضل سيرته ، ورفعوه على رؤوسهم ، وهم يدعون له ، حتى أدخلوه « هيكل العبادة ، ومحلّ أهل النسك والزهادة » . وفي الهيكل جثا الولد أمام النمر ، فشكره على حسن تربيته وإعداده إياه للوزارة ، وطلب منه أن يوصيه بما يكفل له حسن التصرف في منصبه الجديد . إذ ذاك تكلم النمر لولده بـ « عهده » إليه ، وهو صلب كتاب الإشارة .

هذا التغيير الكبير الذي أحدثه ابن الخطيب على الأصل اليوناني يعكس قدراً غير قليل من تجربته السياسية مع سلاطين بني نصر بغرناطة ، وخاصة منهم الغنيّ بالله[٣٦] . ولقد وصل ابن الخطيب إلى ذروة قوته ونفوذه إبّان السلطنة الأولى للغنيّ بالله هذا (٧٥٥ ـ ١٣٥٥/٧٦٠ ـ ١٣٥٩) . وعندما استولى أخو الغنيّ إسماعيل بن يوسف على السلطنة في غرناطة ، وهرب الغنيّ إلى فاس المرينية سنة ١٣٥٩/٧٦٠ ، وُضع ابن الخطيب في السجن ، وصودرت أمواله وممتلكاته وأراضيه ، وبعد فترة سمح له بمغادرة غرناطة إلى المغرب . وفي سنة ١٣٦٢/٧٦٣ أزيح إسماعيل بن يوسف عن سلطة غرناطة وأعيد إليها الغنيّ بالله ، فدعا صديقه القديم ابن الخطيب إلى العودة إلى غرناطة وتولي الوزارة بها . فوافق ابن الخطيب . وعندما عاد إلى غرناطة عمل على استتباب الأمن بها ، وكان قد فُقد أيام الفتنة فيها . ومرة أخرى ارتفع نجم ابن الخطيب ، ورجع إلى

ما كان عليه من نفوذ. غير أنّ الأمور لم تجرِ هذه المرة بما جرت عليه في المرة السابقة، فإن حسّاده أخذوا بنشر الإشاعات عنه والوشايات، واتهموه بإساءة استعمال سلطاته. ووصلت الإشاعات إلى سمع الغنيّ بالله، ويبدو أنّه مال إلى تصديقها، فتغيّرت معاملته لابن الخطيب. ولما شعر ابن الخطيب بذلك التغير طلب من الغنيّ بالله غير مرة أن يأذن له بالذهاب إلى مكة لقضاء فريضة الحجّ، غير أنّ الغنيّ كان يرفض طلبه، فلجأ ابن الخطيب إلى استعمال الحيلة وخرج من غرناطة إلى بلاد المغرب سنة ١٣٧٢/٧٧٣، واستقرّ بها، لما منحه إياه سلطانها المرّيني أبو فارس عبد العزيز من الرعاية والتقدير. على أنّ خروج ابن الخطيب من الأندلس إلى المرينيين زاد في تقوية الشائعات والوشايات ضده. وتواصلت الأحداث المعروفة التي أدّت إلى مقتله بعد ذلك، وبعضها مما يرجع حتى سنة واحدة قبل وفاته مدوّن بقلم ابن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام»[٣٧].

وعندما يعقد الدارس مقارنةً بين المعلومات التي يوردها ابن الخطيب عن نفسه في «الأعمال» وبين تفصيلات الدور الذي قام به النمر في الإطار الافتتاحي لكتاب الإشارة، فإنه لا يسعه إلا أن يلحظ التطابق شبه الكامل بينهما؛ فابن الخطيب والنمر نالا قدراً مماثلاً من النفوذ إبّان توليهما سلطات الوزارة في بلديهما، وكلاهما استطاع أن يحقّق لدولته إنجازات كبيرة في تلك الأثناء، وكان إخلاصهما وتفانيهما لمليكيهما كذلك مضرب المثل. على أنّ الغنيّ بالله، على عكس الأسد، لم يقدّر لوزيره ما فعل له، كما لم يقدّر جهوده أشرافُ دولة الغنيّ وكبار رجالها، على عكس أشراف دولة الأسد. وقد برهنت الأيام على أنّ الأسد كان حكيماً في السماح للنمر وزيره بترك الوظيفة من أجل العمل لآخرته، وفي عرفانه بالجميل له، وفي تقديره جهوده، عامةً؛ فيما أبان الغنيّ بالله عن قصر نظر ظاهر ونكران للجميل لوزيره ابن الخطيب عندما امتنع عن أن يأذن له بالسفر إلى مكة لقضاء فريضة الحجّ، وأصاخ السمع إلى ما يسعى به لديه حسّاده من وشايات وشائعات باطلة.

فابن الخطيب إذن، عندما اعتمد رسالة سياسية جاهزة، أخضعها لتغييرات معينة، لكي تعكس تجربته السياسية، خاصةً مع الغنيّ بالله، حتى بات كتابه الإشارة اعتذاراً ومرشداً لملكٍ أسدٍ، إذا شاء الغنيّ أن يكون كذلك. غير أن الكتاب جاء متأخراً فيما يبدو.

ويبدو أن ابن الخطيب كان مشتغل الفكر بحسّاده الواشين به في غرناطة؛ إذ هذا ما يفسّر فصلاً معيّناً من الرسالة اليونانية من مكانه في آخر الرسالة إلى أن يكون الركن الخامس من كتاب الإشارة، وذلك الفصل هو «في سيرته [أي الوزير] مع من يتطلّع لهضَبته ويحسده على رتبته»[٣٨]. كذلك حذف من العهد اليوناني المنسوب إلى أفلاطون نصوصاً لا تناسب تجربته السياسية. فمن ذلك حذفه الفكرة القائلة إنّ على الملك أن يشاور «الجماعة» قبل أن يتخذ قراراته حرصاً على صواب هذه القرارات[٣٩]، وتلك فكرة ما كانت تناسب ابن الخطيب، حاكم غرناطة الفعلي، خاصة وأنّ «الجماعة» هؤلاء في غرناطة كانوا من حسّاده، وكانوا يضمرون له الأذى. كذلك حذف ابن الخطيب الفكرة الواردة في العهد اليوناني أن على الوزير أن

يرفض « تفويض الأمور » كافةً في الدولة له[40]، للأسباب نفسها، كما حذف قول صاحب العهد اليوناني إن على الملك أن يحذر انتهازية الوزير[41] خوفَ أن يفضي ذلك إلى إلصاق تهمة الانتهازية به هو نفسه في نظر سلطانه. أما ما جاء في العهد اليوناني من أن الملك متكفّل بحماية وزيره[42]، فإنّ ابن الخطيب لم يكن بحاجة إليه، ولذلك لم يرد في نص كتاب الإشارة.

وهناك تغيير آخر مقصود، فيما أتصوّر، قام به ابن الخطيب لدى أخذه العهد اليوناني الأصلي، وذلك فيما يتعلق بالحجابة: ففي الحياة السياسية العَمَلية لم يلجأ ابن الخطيب إلى استعمال هذه الخطة في الدولة في أيام ولايته، رغم أنّها كانت خطة معروفة بغرناطة آنذاك[43]، إذ إنّ ابن الخطيب إنما وصل إلى ما وصل إليه من نفوذ لغياب خطة الحجابة بينه وبين الناس. وهكذا، ففي حين ينصح كاتب العهد اليوناني الوزير بأن يكون هناك حاجب بينه وبين الناس[44]، يؤكد نصّ كتاب الإشارة أنّه يجب ألاّ يقوم هناك حاجب بين الوزير والرعية[45]. وفي هذا المجال أضاف ابن الخطيب بيتين من الشعر العربي سنداً لموقفه[46]، وهو موقف عبّر عنه أيضاً في مقامته السياسية، فإنّ العهد اليوناني المعتمد في المقامة يخصص فقرة كاملة للحاجب[47]، فيما أهملت هذه الفقرة بموضوعها إهمالاً تاماً في مقامة ابن الخطيب.

ثالثاً ـ النزعة نحو السياسة العملية:

إن من أبرز الأمور في النصين اليونانيين الذين اعتمدهما ابن الخطيب في المقامة السياسية وكتاب الإشارة أنهما مما يندرج في نوع الأدبي السياسي المسمّى « مراياالأمراء »، وهذا يعني أنّ فيهما ـ من حيث المبدأ ـ نزعة نحو السياسة العَمَلية المفيدة لابن الخطيب ـ السياسي الفاعل المجرَّب ـ، بل ربما كانت ميزتهما هذه هي التي دعته إلى اعتمادها ابتداء. وعندما كان ابن الخطيب يرغب في إضافة أيّ فكرة، كانت إضافاته تلك تأخذ وجهة النصيحة العملية.

فمن وجهة نظره، يعتبر الوزير (مثله) ـ لا الملك أو السلطان ـ هو المسيّر الحقيقي لأمور الدولة، وهذا أمر يمكن الاستدلال عليه من الزيادات التي أضافها على النص اليوناني في الفقرة الخاصة بالوزير في المقامة السياسية. فالوزير هنالك هو الذي ينوب عن الملك في مواجهة الصعوبات الطارئة على الدولة وفي التحقيق في القضايا العالقة فيها. فإذا كان الملك لاهياً عليه هو أن يكون جادّاً، وإذا كان الملك ساهياً عليه أن يكون متيقّظاً، وإذا كان الملك غاضباً عليه أن يكون ليّناً، كما أنّ عليه أن يكون دريّاً بحمل السلاح. ومن أجل ذلك ينصح ابن الخطيب الملك بأن يسير في التيار الذي يقرّره وزيره ويحذّره من أن يصادم هذا التيار[48]. والشيء نفسه يلاحظه الدارس في نصّ أسقطه ابن الخطيب من « عهد الوزير إلى ولده »، في كتابه الإشارة ذلك النصّ الذي يجعل للملك سلطاناً عظيماً يصيّره « مالكاً » للناس وللوزير بحكم الشريعة[49]. ففي نظر ابن الخطيب: إذا كان الملك ذا نسب ملكي، فإن الوزير (المثالي) هو امرؤ « رفيع القدر، معروف البيت، نبيه

لله ـ حقّه عند الاعتبار . ونحن نذكر [ذلك] بعد أركان الوصاة ، ونفرغ لذكر حكمها المُحْصاة وفصولها المُستقصاة .

● الركن الأول : وهو المعقد الذي عليه المعوّل فيما يستشعر الوزير بينه وبين نفسه ، ويجعله هِجّيراه في يومه وأمسه :

واعلم[41] أنّ المملكة البشرية ، الخليقة بالافتقار الحَرِيَّة ، لمّا كان راعيها مركّباً من أضداد متغايرة ، وأركان متفاسدة متضايرة ، يجذبه كلٌّ منهما إلى طبعه ، بين آخذٍ برجله ودافعٍ بضَبْعه[42] ، لم يُكمل فراسة ما وُكل إليه بنفسه ، ولا وفت بضمّ منتثرها آلات حسّه ، فاحتاج إلى وزيرٍ من جنسه ، ينوب ـ مهما غاب ـ عن شخصه ، ويضطلع بتتميم نقصه[43] ، ويتيقّظ في سَهْوه ويجدّ عند لهوه .

فيحتاج[44] من اتّصفَ بهذه الصفة ، إلى كمال في الفضل ورجاحة في المعرفة ، يعدّل بها ما عصى الملك من أمور ملكه ، ويوفي ما عجز من نَظْم سلكه ، حتى تبرز المملكة في أتمّ صفتها ، وتبلغ الكمال الأخير بمقتضى ضرورتها . وتقوى الله عزَّ وجلَّ أولى ما قدمْتَه ، ثم تذليل[45] نيّتك لمن خدمْتَه ومقابلة ثقته بك بالوفاء الذي سُدْتَ إنِ التزمته ، وحَمْل الخاصة والعامة على حكم الشّرع . فإنْ لم تَبْنِ الأمر على ذلك هَدَمْتَه . وأفضل ما وُهب لك فيما قُلِّدته من قلادة ، وعُوِّدته من عادة السيادة : شمولُ الأمن ، وعموم الرضا ، وظهور الأمانة ، ورعاية الإحسان ، وإفاضة الرأفة في عالم الإنسان ، وزيادة الكفاية بحسب الإمكان .

وأعلم[46] أنه من لا يضبط نفسه وهي واحدة لا يضبط أمر الكثير من الناس ، على تباين الأغراض وتعدد الأجناس ، فاربأ بنفسك عمّا تجره الشهوات من النقص ، وازجرها عن كلف الحرص ، وألن جانبك لمن ظهر كماله ، وتقصّرت به عنه أحواله .

واعلم أن بقاء النعم على كتَدِك[47] ، مقرون ببقائها في يدك ، وجريان الأمور على مذهبك ، بحسب استقامتها بسببك .

وقَلَّ[48] أن يتهيأ في هذا العالم عملٌ عار من المَلامة ، وسالم من التجوّز كلّ السلامة ؛ فليكن خطاك في الإحسان للإنسان ، لا في الإشارة بالفعل واللسان ، فقليل الخير ربما تخارفت[49] ثمرته ، وآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْن شَجَرَتُه . وإذا هممتَ بزوال نعمةٍ عن جان ، فاذكر كم تنال تلك النعمة من مكانٍ ، وفيها مَنْ لم يستوجب عقاباً ، ولا كشف في سرٍّ نقاباً . وقد قالوا[50] : الأشراف تُعاقب بالهجران ، ولا تعاقب بالحرمان ، وربما أقالت حرّاً ركن إليها ولم تعلم . ثم تأوّه لفقد معروفها ولم تألم ؛ فاجعل هذه الذرائع شفعاء في بقائها ، ودواعي لإجرائها ، يتكفل لك باريك بإحراز السلامة ، ورفع الملامة ، والمثوبة في القيامة .

واستعمل التواضع[51] في هبوب ريحك ، وتجاف عن الجبهة والنّجْه[52] بتعريضك ، فربما خشن جوابٌ لا

يُغسل طبعه، ولا يوجد من يرقعه، ولا يزيله عِقاب قائله ولا يرفعه، سيّما فيمن استحقّ الموت، أو تَيَقّن الفَوْت. واصبر على ذوي الفاقة، وأهل الإضافة، بجهد الطاقة. وإياك والضجر، فإنه يكدّر الصفو، ويُذهب العفو، ويُبقي الفلتة الشنيعة، ويفسد الصنيعة. وقد ركل أبو عبّاد الوزير[٥٣] رجلاً برجله، فَرُفع إلى الخليفة من أجْله:

قُـلْ للخليفـةِ يـا ابن عمّ محمـدٍ	أشْكِـلْ وزيرك إنّـه ركّـالُ
أشْكِلْهُ عن رِكْل الرجال وإنْ تُرِدْ	مـالاً فعنـد وزيركَ الأموالُ

فتركها مثلاً يُذكر وفلتة تُنكر.

وإذا باشرت عملاً[٥٤] فتتبّع عيونه دون فُضوله، وأبوابه دون فصوله، ولا تشتغل بفروعه المتشعّبة عن أصوله، ثم اصعد بعدُ إليها، واعطف عليها، ولا تغْن بفصوله عن جُمْلته. فيضيع سائره قبل إناءة الوقت ومُهْلته. ولا ترفعنْ عملاً عن وقت يسرده وينصّه، فإنّ لكل وقت عملا يخصّه، وأقلّ ما يلحق من ازدحام الأعمال، تطرّق الفساد إليها والاختلال، عند الاستحثاث والاستعجال، وضيق المجال، وتهيُّبُ العمل مُطيلٌ للزمان، منبىء عن ضيق الجنان.

ولا تركن[٥٥] في الاستخدام إلى شفاعة، غير نفّاعة، ما لم تكن شفاعة الكفاية والأمانة والرعاية. واعلم بأنّ من ظهر حسن صبره، على انتظام أمره، حسن صبره على شدائده، في حوادث الدهر ومكائده، فالصبر قدر مشترك، فيمن أخذ وترك، والنّفس لا تنفكّ عن معترك. واعلم أنّ الراحة عند الحاجة إلى الحركة، تهدي التعب الضروري لمن أغفله فيها وتركه.

ولا تغفلن[٥٦] شيئاً تقلدتَه، بعدما حسبته من وظائفك وعددتَه فيُظنّ بك من الخروج عن طبعك الذي جلبت عليه بمقدار ما خرج إليه؛ ولا تحتجب عن الناس يفشّ بغضك، ويضعف من السياسة فرضك، وتكتمك النصيحةَ سماؤك وأرضك؛ ولله درّ القائل:

كم مِنْ فـتىً تُحْمَـدُ أخـلاقُـه	وتَـسْكُنُ الأحرارُ في ذِمَّتِـه
قـد كَثّرَ الحـاجـبُ أعـداءَه	وسَلَّـطَ الـذّمَّ عـلى نعمتِـه

ولا يعجبك ما [تواصفه الناس من محاسنك، وتأمّل عند ذلك ما][٥٧] بطن من مساويك، ولتكن معرفتك بعيب نفسك أوثق عندك من مدح أبناء جنسك.

وانقبضْ عن العامة[٥٨] ومن يُلابسها، وامتنع من التكثّر[٥٩] بمن يجاسنها، ففي طباعها إهانة الملتبس بأشياعها، وتَنَقُّص من اتصل برعاعها. واعلم بأنّ إحسانك للحُرّ يحرّكه على المكافأة المحتملة، وإحسانك إلى الوغد يحمله على معاودة المسألة؛ فضع إحسانك حيث وضعها الرأي الصريح، والاختيار الصحيح.

هذه ـ أرشدك الله ـ نقطة من يمّ ، وتافه من جمّ ، وحصاة من ثَبير ، وقليل من كثير ، والنبيل من قاس الشيء بنظيره،واستدلّ على الكثير بيسيره ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

● الركن الثاني: فيا يستشعره الوزير مع الملك ليأمن عادية الأمر المرتبك[٦٠]:

وإذا خدمت ملكاً زاد رأيك على رأيه[٦١] وفضل سعيك في التدبير حسن سعيه ، فأرهِ الاستهانةَ بمزيدك ، وأقصر من إشراف جيّدك ، وأظهر التعجبَ بما فضل عليك به ، وسِرْ من الحزم على مذهبه ، ولا تتبجّح بتجاوز ما لأهلِ طبقتك؛ وإذا أنفقتَ عنده الكفاية فاقصد في نفقتك ، فإنّه لا يحسن منه موقعُ قولك أو عملك ، ويرى أن تعدّيك أكثر من تجمّلك[٦٢] ، فيشرع في كَسْرك ، ويشرك إلى قسرك.

وإذا[٦٣] تعارضَ عندك العجز في مروءتك وديانتك ، وكفايتك وأمانتك . فَنَزِّه الكفاية عنده عمّا يشين ، وارضَ بالنقص في المروءة لا في الدِّين ، فهو عليه أسهل ، وفَرْقٌ بين الخائنين لا يُجهل ، وإيّاك أن يأنس بك فيهما إخلالاً ،أو يرى منك لهما إهمالاً .

واحذر الإضرار[٦٤] بالناس لديه ، في سبيل النصيحة أو التوفير عليه ، كما تُوفّر العامةُ على أنفسها الشحيحة ؛ وارتَعْ له قلوبَ الخَلْق ، بمسامحتهم فيما قصّروا له فيه عن يسير الحقّ . فإنك تسترخص له بذلك تملُّك الأحرار ، وتحسين الآثار ؛ واترك لشؤونه الخاصة شؤونك ، وحَرِّك من أحسنت إليه على شكره دونك ، ليقفَ على أن سعيك له أكثر من سعيك لنفسك ، في يومك وأمسك ، ولا حظّ لك فيما لا تمسك.

وإياكَ[٦٥] أن تُحيّا بمثل تحيّته ، أو تُلقى بمثل ما يُلقى به عند رؤيته ، أو تُرفع بالسلام عليك الأصوات ، أو يسبق الناسُ بابك قبل باب الملك بالغدوات ، فكم جلب ذلك من الآفات ، وغيّر من الصِّفات.

وإذا دعاك[٦٦] إلى لهوه أو شرابه ، وخصّك بمزيد اقترابه ، فليكن الإعظام على الالتذاذ غالباً ، والفكر للحَذَر مراقباً ، واجعل التحرُّز منه في أوقات انبساطه إليك واجباً ، ولا تستهن من ذلك ما ليس بهيّن ، وإياك أن تنمّ بك أسِرَّة وجه أو نظرة عين.

واجتنبْ لباسَ ثوبه[٦٧] وركوب مركبه ، واستخدام جميع ما يتزيّن به ، فمن خدم السلطان لنباهة الذّكر ولباس العزة ، لم يضره تقصير الرياش وقعود البزّة ، ومن صحبه للذّة والترف ، كان سريع المُنْصَرَف ، مسلوبَ الشرف.

فصل

وإذا خصّك بمشورته[٦٨] ، وطلب رأيك لضرورته ، فلا تخاطبه مخاطبةَ المُرْشِد لمن استهداه ، وأره حاجتك لما أبداه . وإذا اعترف بخطأ يواقعه في بعض أنظاره ، أو أعلن يوماً بسوء اختياره ، فأجِلْ فكرك في التماس أعذاره،وتوجيه عاره ، واحتلْ بفطنتك في رَمّه[٦٩] ، واحذر أن توافقه على ذمّه . وذلّل نيتك لكلامك.

واصرف إلى تَرْك التجاوز جلّ اهتمامك. فالكلام إذا طابق نيّة المتكلّم حرك نيّة السامع، وإذا صدر عن القلب أُخذ من القلب بالجامع.

وإذا[70] توجّه عليك عَتْبه لشبهةٍ في أمرك عرضَتْ، أو ظنّة تعرّضتْ. فلا تقبل رضاه عنك تمويهاً، ما لم تقم حجتك فيها. ولا تسأم الإلاحة. وأرِهِ أنك لا تؤثر الحياةَ دون براءة الساحة. حتى ترفع الظِّنّة رأساً، ولا تخشَ من تبعة الإحنة بأساً. ويكون ذلك شاهداً عنده بفضلك. وزائداً له في محلك.

ولِنْ له[71] إذا غضب. والق الكريهة دونه وإن رهب، واصرف لحظَك عنه إن أكل أو شرب، وسدّ بينك وبينه باب العتاب، بالمشافهة والكتاب.

ولا تخف من طاعة الملك إلاّ لما وافق طاعة ربه، يضع الله خلتّك في قلبه، واذكر[72] قول الوزير المتقدّم وقد أمره الملكُ المسلّط بقتل رجل وتلطّف في سؤاله عن ذَنْبه، بما لا يجرّ عظيمَ إنكاره وفظيعَ عَتْبه: «أيها الملك السعيد، لو كنتَ مالكي وحدك. لأنفذتُ من غير مسألة أمرك، وشرحتُ بالامتثال صدرك، ولكنك تَمْلُك ظاهري وحدك. ولي مَن تَمَلُّكه وما بعده، وإذا أنفذتُ عهدك نكثتُ عهده، وإذا خرجتُ من يدك دخلت في يده التي لا تمنع، فكيف أصنع، وله الأمر أجمع، وأنا لك في طاعته من شراك نعلك أطْوَع؟» فبكى الملك الجاهل لصدق حجّته، وحمل الرجلين من العفو على أوضح محجّته، وهذا القَدْر كاف لأولي الألباب، من هذا الكتاب.

● **الركن الثالث: فيما يَحْذره من تَقَدُّم الملك عليه، في الأمر الذي أسند إليه، وجعل زمامه في يديه[74]:**

واعلم أنّ من العار بارتياضك، وسداد أغراضك، أن يتقدّمك الملك بخُلُق هو أَوْلى بك، وأدخل في حسابك، من الصبر على الملاهي، والانقياد للأوامر الدينية والنواهي، وهجر الدَّعة، في الضيق والسعة، وشدة اليقظة، والذِّكر الذي تُعْنى به الحَفَظة من ذكر إقطاع، أو مقدار ارتفاع، أو اسم مرتزق، أو حصر عمل مفترق، أو التفكر في مصلحة المملكة؛ فإنه إن راضَ ذلك دونك ومَلَكه، ونهجه منفرداً وسَلَكه، وتَميَّزَ فيه بالملكة وسامحك في التقصير، والباع القصير، وسرّه سبقه إياك، وتقدُّمه عليك فيما ولاّك، فهو مما يحطّ لديه أمرك، ويوهن قَدْرك، وإن كان قد غرّك، ويرى أنه لا مؤازر له فيما نابَه، ولا كفى فيما عرا بابه، وأمّل منابه. واجتهدْ أن يراك شديد الحرص، أنفاً من النقص، ولا يحسّ منك في وظيفتك بتقصير، ولا يشعر منك فيه ولو بيسير.

فصل

واحذر أن تسوّل لك قوة الإمكان، ودالّة السلطان، الزيادة في الاستكثار من الضِّياع والعقار، والجواهر النفيسة والأحجار، وغير ذلك من الاختزان والاحتكار، وما تدعو إليه جلالة المحلّ ونباهة المقدار، فيتقسّم

فكرك وشغلك. ويضيع سعيك وفضلك ويحصيه عليك من يضمر لك الافتراس. ولا يمكّنك من كيده الاحتراس، ممّن حُرم حظّه. أو وُكس معناه أو لفظه. أو متطلّع إلى أوفى من ميزانه، متسام إلى ما وراء إمكانه. أقصرت به السياسة من شأنه. فأضرم الحسدُ ناره. وأذكى أواره. وأعظم صغيره وأثاره، ويتشرّف إلى مناهضتك من كان عنها مقصّراً، أو يجهر من كان متستراً. ويستدعي الارتياب بما جَلَبه الحظّ إليك، والاستظهار به عليك، وطمع الحاسد فيما لديك. وأحرزْ مع الملك البلغةَ التي تُقيمك، وتُوسدك مهاد العافية وتُنميك، وترفع كلّك. وتشمل أهلك. حتى يعلم أنك بقليل ما يُجريه لك العدلُ لديه، أغنى منه بالكثير الذي بين يديه.

واجتنب الانهماك في الاستكثار من الولد. والحشم أُولي العدد. والأذيال التي تنبت في أقطار البلد، فإنّ الحاسد يراهم بذخاً ونعمة. وإنما هم مؤونة ونقمة، وداعية إلى استهلاك عتاد، أو تدمير مستفاد، وإثارة حسّاد، لهم ورْدُ جاهك وعليك صدرُه. ولهم نفعُ كدحك وعليك ضررُه. والاقتصاد في أمرك أدْوَمُ لسلامتك، وأرفع لملامتك. وأغضُّ لطرف حاسدك. وأصدق لفوائدك. وأرْوَحُ لقلبك، وأخلص فيما بينك وبين ربك. وفيما أعثرتْ عليه التجارب، ووضحت منه المذاهب. أنّ المتقلّل من الوزراء طويلٌ عمره. ناجحٌ أمره. مظفّر بأعدائه وأضداده، قريب من الحال المرضية في معاده.

ولتكن همّتك مصروفة إلى استقراء حال المملكة واعتبارها، وتأمُّل أقطارها وما عليه كل جزء من أجزائها، من سداد ثغورها، ودفاع أعدائها. ونقصان ارتفاعها. واختلال أوضاعها. أو تدبير مصلحة يمحى لك ذكرها وخبرها، ويحس بك أثرها، وخفْ مصارع الدالّة فهي أدْوأ دائك. وأكبر أعدائك.

واعلم أن الاقتصاد مع إمكان التّوْسعة، والتنزّل مع الرتبة المرتفعة. يُنبيء عن قوة رأيك. وهمّة عزمك، واستقامة سعيك. والرغبة في الترف، والميل إلى السرف. دالة على غلبة الهوى على الشرف.

وأجلَّ ما جمّلت به زمانك، ورفعتَ شانك، خدمةُ الشريعة وإحياء رسومها، وقمع البدَع وإزالة قنومها[٧٥]، يدع لك الجهد، ويتخلّد المجد. وتَوَلّ ذلك متى أمكنك بنفسك، ولا تَكِلْهُ لغيرك من أبناء جنسك، حتى إذا وقفت على غَميزة يجب تغييرها، ويتعين نكيرها، فارفع إلى الملك عَيْنها، وقبِّح عنده شَيْنها، ثم حُلْ بينه وبينها، وأظهر للناس أنّ قلقه بما أهمّك منها أكثر من قلقك، وخلقه في إنكارها متقدّم لخلقك تُهْدِ إليه بذلك ما يزيد في مكانتك، ويغبط بأمانتك، ويشهد بمؤازرتك وإعانتك، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

- **الركن الرابع: في تصنيف أخلاق الملوك للسَّيْر بمقتضاها والسلوك[٧٦]**

وإن للملوك أخلاقاً يضطر الملاطف من خُدّامها إلى استعلامها، فيجعلها أُبّاً للسياسة وأحكامها، وهي أن الملك لا يخلو أن يكون سخياً باذلاً، أو ممسكاً باخلاً، وقوياً على تدبيره، أو ضعيفاً يلقي المقادة لوزيره، أو

سيّئاً ظنّه ، أو ممن الاسترسال فنّه ، أو حَسَنَ البِشْر عند الافتراض ، أو منقبضاً عند الإعراض[٧٧]. وإذا تركّبَتْ هذه الخِلال تركيباً طبيعياً ، وترتّبت ترتيباً وضعياً ، وتقابل امتزاجها ، بلغ إلى ستة عشر ازدواجها[٧٨] ، وتأتّى للحكيم من الوزراء علاجها ، وربما انحرفت هذه الخُلق أو تَوَسَّطَتْ ، وربما أفرطت وربما فَرّطت ، وعلى هذا الترتيب ارتبطت . فإن كان سخياً آثرَ درور[٧٩] الشكر على توفير دور المال ، وكَلِفَ بحسنِ الذّكر في جميع الأحوال ؛ وإن كان بخيلاً فبضدِّ هذه الحال . وإن كان غلبتْ عليه قوةُ التدبير استدعاك إلى المشاركة في سَعْيك ، وأحرزَ عليك بذلك الحجةَ في رأيك . وإن غلب عليه الضعفُ ركن إلى تدبيرك ، وفوّضَ إليك الأمرَ في قليلك وكثيرك ، وخَلاّكَ وما لا يُحْمد من عواقب أمورك . وإن كان حَسَنَ الظنّ تمكنتَ من إحكام تدبيرك لدولته ، وبلغت منها أقاصي مصلحته . وإن كان سيِّىء الظن شغلك عن الإخلاص بإحراز الحجّة عليه ، عن التفرّغ لكثير ما يحتاج إليه . وإن كان البِشْرُ عليه غالباً ، كان لنشاطك جالباً .

فاجعل هذه الأخلاق أصولاً ، ورغبك لها موصولاً ، وصاحِبْهُ على خُلقه وعقله ، وانقل منها بالتلطف ما قدرتَ على نقله ، وأعطِ صورةَ مَنْ تخدمه ما يناسب تأليفها ويرفع تكليفها ، وأنفق ما ينفق عندها ، وجارِ أخلاقه واجتنب ضدّها ، يحسنْ أثرك ، ويعظم شأنك ، وينفذ لك سلطانك .

• الركن الخامس : في سيرته مع من يتطلع لهضبته ويحسده على رتبته[٨٠]

واعلم أنه قلّ ما يخلو مَنْ حَلَّ محلّك من علوّ القدر ، وعزة الأمر ، من قرينٍ يعانده ، أو حاسد يكايده ، أو متطلّع يمتّ إلى الملك بقربى ، أو محلّ أنافَ في اللطافة وأربى ، يتوهّم أنّ وسيلته تُبلغه ما يتطاول إليه من منزلتك ، وتُلبسه لباس تجلّتك ؛ أو ذي همة جامحة ، ولأعنان الشرف طامحة ، يرى حظّه مبخوساً ، وأنّ مثله لا يكون مرؤوساً . وآخر رآك مقتّراً فيا آثرتَ فيه رضى مَنْ حَكَمَ بفضلك ، وحسّن الإبقاء في المملكة بعدلك ، واحتملَ المدافعةَ لحسن[٨١] موقعك وجلالة محلك ، فظنّ تراخيك لإخلالٍ في التدبير ، وإساءة في التقدير ،وكلّهم ينظر إلى الملك من أصغر جوانبه ، ويخفي عنه أكثر مما يظهر من مواهبه ، ولُطْفُ المحلّ والتقدمُ في العلم وإنْ كان يغيّرُ مَنْ حَلّ محلّك ، وناهض فضلك ، ليس من الاضطرار أن يكون لمنزلتك أسباباً ، ولا لطلبته أبواباً .

والحقّ أنْ تجاهدَ هذه الجماعة ، وتقمع منها الطماعة ، بالزيادةُ في فضائلك الذاتية ، والتحرّز من مُلابسة الدنيّة ، والمناصحة لمن خصّك بالمزّية . ولا تكشف في المجاهدة وجهاً ، ولا تبد فيهم غيبة ولا نجهاً ، واكسِر سَوْرة حسدهم بإحسانك ، وسَوّغهم المعروفَ من وجهك ولسانك ، واصطنعْ أضدادهم ممن طلع[٨٢] عليهم ، ومَثّلْ لديهم ، تحرسْ منهم غيبك ، وتدافعْ عيبك ، وتجلُ رَيْبك ، من غير أن يحسّ منك لهذا الغرض بفاقة ، ولا يشعر بإضافة ، فإنك تنشر معايبهم المطويّة ، وترميهم من أشكالهم بالبليّة ، ثم تتلقى بعد ذلك فوارطهم بحسن الإقالة ، وتتعمّد سقطاتهم بالحلالة ، وتكرّ بكرم العفو على سَوْءاتهم السّوالف ،وتخلّيهم وما بقلوبهم من الحَسائف[٨٣] ، فإنّ تسلُّطَ الجاهل على نفسه فيا قصّر عنه من عدل ، وأخطأ نيله من فضل ، أعَزُّ على

حوبائه[٨٤]، من ظفر أعدائه.

ولا تركن إلى من وَتَرْتَه، ولا لمن حركتَ حسده وأثَرْتَه، وخذ حاشيتك بترك التعالي، والتطامن لذوي الشرف العالي، والإقصار من المطامع، وإذالتك في المسامع.

ولتتخطّ العدلَ في الناس إلى الفضل، والبِشْر إلى البذل، والقول الصالح إلى الفعل؛ واختر من تصطنعه لخدمتك، وتنصبه مظهراً لنعمتك، بنسبة ما شرط في الاختيار في رتبتك، فإنّ حُسْنَ الصنيعة يرد عنك سوء القالة، وقبحَ الإدالة، ويصون عرضك من الإذالة[٨٥].

● الركن السادس: فيا تنـاس به الخاصة والبطانة وذوو الدالة والمكانة[٨٦]

واعلم أنه من الخاصّة مرتضٍ[٨٧] لشدائد الدولة ومهمّاتها، ومتسمٌ من ألقاب الغَناء عنها بأكرم سِماتها، فهو يرى لنفسه اليد، واليوم والغد؛ وآخر متعلّق بقرابة الملك على حسب قوة أسبابهم، ووزن ما في حسابهم؛ فإن أطعتَ فيهم الملك ظلمت المملكةَ حقَّها، وإن عدلتَ خالفتَ موافقة الملك وباينت طرقها؛ والصواب التمسك بالترتيب على الإطلاق، ووضع الناس من المملكة موضع الاستحقاق، واستعمل إرضاء الملك في تفضيل من آثرته بحسن العطيّة وباين بين أصناف الشفوف وأنواع المزيّة.

واعلم أن ميل الأعلام إلى رفعة المنزلة، أعظم منها إلى الصلة؛ وراعِ أمر الجماعة، فَتَمِّمْ ما وقع بالمستحق من التقصير، بكرم المواعد وبإلقاء المعاذير، وأصلح قلوبهم للملك بكل ما يتكفل بجبر الكسير، واجذبها إلى طاعته بحسن أوصافك، وصحة رأيك، في القليل والكثير، وانحله فضائلك من غير شَوْب بالمنّ ولا تكدير، تصفُ لك سريرة صدره، ويأتمنك على جميع أمره. واحذرِ انصباب القوم عليك، وإخلالها بمراكزها من داره وانصرافها إليك، والتحامها بك، وتمسّكها دونَ الملك بأسبابك، اعتماداً على نصرة جنابك، وقيامك بأمرها وحسن مَنَابك، وخفْ وضعها إياك من قلوبها وعيونها، وكافّة شؤونها، بحيث لا يؤثر الملك رضاه، ولا يحمد مقتضاه، فربما زرع لك في قلبه سوء الطويّة، وأثبت لك الحقد وخبث النيّة، وخبأ لك وأنت لا تعلم أعظم البليّة. ولْتُمَكِّنْ في النفوس أنّ رضاك برضاه معقود، وأنت لا تعمل إلا ما رآه، ولا تؤثر إلا ما ارتضاه، وأن لك منه منزلة محدودة، ودرجاً معدودة، من زادك عليها ظَلَمك، وجلب أَلَمك، وأنّ في قبولك لها وإيثارك، ما يزري على فضل اختيارك.

وعامل الملك في وَلَده بحفظ الغيب، والسلامة من الريب، واحفظ له الرسم واستبقه، واجعل حقّهم دون حقّه، وإذا دعوت لهم فاشترط السعادة بحرمته وطاعته، واجعل رضاه من الولد رأس بضاعته؛ واحذر من إهمال هذا الغرض وإضاعته، وإياك أن يفضل ولدك ولده، ولا عدّتك عدده، ولا تنافسه في شيء قصده، ولا تظهر حاشيتك على حاشيته، ولا تتشبه غاشيتك بغاشيته، ولا تنازعه تَجِلّته، ولا تعمر منزلته، ولا تحل

محلّه من جيشه ، ولا تَفَرْ عليه في نَباهة بنائه وفضل عيشه ، وتفقد نفسك فانزل على الرقى اختياراً ، قبل أن ينزلك اضطراراً .

فصل

وإذا انصرمتْ إليك من إحدى حرمه رغبة ، أو تأكدت في مهمّ قربة ، أو نذرت إليك شفاعة ، أو توجّهت في حاجة طمّاعة ، فلا تسمع رسالتها ، ولا تعتبر مقالتها ، إلا من لسان إنسان ، موصوف عند الملك بإحسان ، حالٌ من ثقته بمكان . واحترز في محاورتها من فلتات اللسان وهفواته ، وراجع خطابها مراجعة الأخ لأكرم أخواته ، أو الابن لأبرّ أمّهاته . ولا تصغِ في مخاطبتها إلى خضوع كلام ، ورقة تحية وسلام ، وانفر من ذلك نفرتك من السموم الوحشيّة ، والمهالك الرديّة ، وأسدِلْ دونَ الولد والحرم جناحَ التقيّة ، واكتم سره عن أبناء جنسك ، لا بل عن نفسك ، واجعل قلبك له قبراً ، وأوسعه ضنانة وصبراً ؛ فإنْ تزاحم عليك تزاحماً تخاف منه معرّة النسيان ، وإغفال ذكرها على الأحيان ، فاتخذْ لها رمزاً يفردك بعلمها ، ولا تبح لسواكَ شيئاً من حكمها ، ولا تغفل مع الأحيان ما جرى به رسمك من عرض كتاب وارد ، أو خبر وافد ، أو بريد قاصد ، واستأمره فيما جرت به العوائد ، وإن خصت منزلتك ، ولطفت منه محلتك ، فلا تترك أن يمرّ ذلك على سمعه ، مغتنماً لوعيه ، وأذقه حلاوةَ الاستبداد بأمره ونهيه ، واترك له منفذاً يحتاج إليه بابه عند مغيبك ، لما عيّنه العدل من نصيبك . ولازم سدته مع الأحيان ، وأنك إن تجتمع معه على فراغ فيبقى الملك مضيعاً بمقدار ذلك الزمان ، وإذا انصرفت إلى منزلك[٨٨] ، فاخلُ بعمالك وكتّابك ، وذوي الرأي والنصيحة من أصحابك ، على إحكام حال الملك التي أناطها بك ، فإذا أمسيتَ فاشغل طائفة من ليلك ، بمدارسة شيء من حكم الدين ، وأخبار الفضلاء المهتدين ، واجلُ صَدَأً نفسك بالبراهين ، ومجالسة العلماء والصالحين ، واختم سعيك ببعض صحف النبيئين ، وأدعية المرسلين والمتألّهين لتختم يومك بالطهارة والعفّة ، والحلم والرأفة ، واعتدال الكفة ، وليهون عليك النصب والوصب ، والعمر المغتصب ، إنك مهتدٍ بهدي ربك الذي يرعاك ، ويُنجح مسعاك ، ويثيبك على ما إليه دعاك .

* * *

قال[٨٩] : فلما استوفى النمر مقاله ، وأحرز السبل سؤاله ، وقرر حاله ، انصرفَ مبتهجاً إلى خِدْمَتِه ، وصرف النمرُ إلى العبادة وجه همّته ، ثم لحق بعد ذلك بجوار ربّه ورحمته . وقيّد الحاكي هذه المحاورة لتلفي رسماً يُقتفى ، وعلماً يُهتدى به إذا ذهب الأثَر وعفا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الحواشي

(١) ترجمة ابن الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة، له، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، (القاهرة، ١٩٥٥ - ١٩٧٨)، ٤ : ٤٣٨ - ٤٦١؛ وأعمال الأعلام، له أيضاً، تحقيق ليفي بروفنسال، (بيروت، ١٩٥٦) : ٣٠٥ - ٣١٩؛ وكتاب العبر، لابن خلدون (بولاق، ١٢٨٤)، ٧ : ٣٣٢ - ٣٣٦، ٣٤١ - ٣٤٢؛ ونثير فرائد الجمان، لابن الأحمر، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، (بيروت، ١٩٦٧) : ٢٤٢، وما بعدها؛ والفارسية، لابن قنفذ القسنطيني، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد تركي، (تونس ١٩٦٨) : ٦١ - ٦٢؛ ونفح الطيب، للمقّري تحقيق الدكتور إحسان عباس (بيروت، ١٩٦٨)، ٥ : ٧ - ١٨٨؛ وأزهار الرياض، للمقّري أيضاً، تحقيق الأساتذة : السقّا والأبياري وشلبي، (القاهرة، ١٩٣٩ - ١٩٤٢)، ١ : ١٨٦ - ٢٣١؛ وانظر بعض الدراسات عنه، ككتاب : ابن الخطيب من خلال كتبه، لمحمد بن أبي بكر التطواني، (تطوان : ١٩٥٤)؛ وكتاب : لسان الدين ابن الخطيب، لمحمد عبد الله عنان، (القاهرة، ١٩٦٨)، خاصة الصفحات ٢٧ - ١٧٦. وهناك عدد من كتبه المحقّقة يتضمّن مقدمات في سيرته ومؤلفاته. وانظر لمحة سريعة عنه في دراسة (J.Bosh-Vila). في الطبعة الجديدة من الموسوعة الإسلامية (النسخة الإنجليزية)، ٣ : ٨٣٥ - ٨٣٧.

(٢) انظر : نثير فرائد الجمان : ٢٤٢؛ ونفح الطيب، ٥ : ٧، ٨٠؛ وأزهار الرياض ١ : ١٨٦.

(٣) انظر : نفح الطيب، ٥ : ٨٠.

(٤) انظر : الإحاطة ٤ : ٤٥٩ - ٤٦٢؛ ونفح الطيب، ٧ : ٩٧ - ١٠٠؛ وأزهار الرياض، ١ : ١٨٩ - ١٩٠.

(٥) قال الدكتور أحمد مختار العبادي إن هناك مخطوطة لقصيدة السياسة، لابن الخطيب، محفوظة في المكتبة العامة بالرباط، تحت رقم (D774). انظر مقالته عن مؤلفات ابن الخطيب في المغرب في : (Hespèris, XLVII, (1959), p.251, n.5.).

ولكن يبدو أنّ هذا سهو، فإنّ فهرس الخزانة العامة بالرباط، (الرباط، ١٩٥٨)، ٢/٢ : ٢٦٠، يذكر بوضوح أن هذه القصيدة منسوبة خطأ لابن الخطيب. وانظر كذلك في أقوال الدكتور العبادي : نفاضة الجراب، لابن الخطيب، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، (القاهرة، دون تاريخ) : ١٨٨، الحاشية ٣.

(٦) انظر : نفاضة الجراب : ١٨٨.

(٧) انظر : الإحاطة، ٤ : ٤٦٠؛ ونفح الطيب، ٧ : ٩٧ - ٩٨.

(٨) يستنتج ذلك من أن ابن الخطيب لم يذكر هذين المؤلّفين في النسخة الأولى من كتابه الإحاطة، تلك النسخة التي أرسلها وقفاً إلى مصر سنة ٨٦٨ هجرية (انظر : نفح الطيب ٥ : ٩٧ - ٩٨)، ثم عاد وذكرهما في نسخته المتأخرة من الكتاب نفسه (أنظر : الإحاطة، ٤ : ٤٥٩ - ٤٦٠)، وفي هذه النسخة ذكرٌ لأحداث ترجع حتى سنة ٧٧١ على الأبعد (أنظر : مقدمة كتاب الإحاطة : ١ : ٨١)، وكل هذا يعني أن ابن الخطيب قد أضاف اسمي هذين المؤلفين. فيما أضاف. إلى النسخة السابقة من كتاب الإحاطة، على الأقل حتى سنة ٧٧١ هجرية.

(٩) انظر : فهرس المخطوطات العربية في الرباط، لـ أ. س. علّوش. و أ. الرتراتي، (الرباط، ١٩٥٨)، ٢/٢، الأرقام : ٢٤١٠، ٢٤١١، ٢٤١٢، ٢٤١٣، ٢٤١٤.

(١٠) انظر : مقدمة الأستاذ عبد القادر زمامة على كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، (١٩٧٢)، ٧٠ - ٧١.

(١١) انظر : نفح الطيب، ٦ : ٤٣١ - ٤٤٥.

(١٢) سوف أعتمد في هذا البحث على نصّ المقامة كما ورد بتحقيق الدكتور إحسان عباس، في نفح الطيب، ٦ : ٤٣١ - ٤٤٥، مشيرة إلى صفحاتها أولاً، ثم إلى صفحات النص كما أورده الأستاذ محمد عبد الله عنان في آخر كتاب الاحاطة، ٤ : ٦١٤ - ٦٣٤. وأما نصّ الإشارة فسوف أعتمد فيه مبدئياً على تحقيق الأستاذ عبد القادر زمامة، كما جاء في مقالته، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، (أنظر الحاشية السابقة)، إلا حيث أرى ضرورة لتغييره كما يراه القارىء ملحقاً بهذا البحث. ومن المعلوم أن الأستاذ زمامة كان قد نشر نصّ كتاب الإشارة في مجلة البحث العلمي بالرباط، (الجزء ١٣، العدد ٢٦) : ٩٣ - ١٠٠.

(١٣) انظر كتاب الأستاذ محمد بن أبي بكر التطواني المذكور سابقاً : ابن الخطيب من خلال كتبه، ٢ : ٩٢ - ٩٩؛ وانظر في ما قاله الدكتور شوقي ضيف بحثه : «لسان الدين ابن الخطيب الكاتب»، في كتاب : دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس بمناسبة بلوغه الستّين، تحرير الدكتورة وداد القاضي، (الجامعة الأميركية في بيروت، بيروت، ١٩٨١) : ٢١١ - ٢١٢.

(١٤) انظر:

D.M. Dunlop, « A Little known work on Politics by Lisân al-Dîn Ibn-Al-Khatîb», Miscelanea Estudios árabes y habráilos...

(١٥) المصدر نفسه: ٥٢ - ٥٣.

(١٦) هناك غير طبعة لكتاب ابن الداية: العهود اليونانية. (انظر مقالة دنلوب المذكورة آنفاً: ٥٢. الحاشية ٧)؛ وكذلك كتاب: الفلسفة السياسية عند العرب، لعمر المالكي. (الجزائر، ١٩٧١). أما النصوص المستعملة في هذا البحث فهي كما وردت في كتاب: الأصول اليونانية للنظرية السياسية في الإسلام، للدكتور عبد الرحمن بدوي. (القاهرة، ١٩٥٤). الجزء الأول. و «عهد الملك إلى ابنه» على الصفحات ٥ - ٤١، و «عهد الوزير إلى ولده». على الصفحات ٤٢ - ٦٤. وهناك معلومات عن ابن الداية في مقدمتي كتابي بدوي والمالكي.

(١٧) نفح الطيب ٦: ٤٣١؛ والإحاطة ٤: ٦١٤.

(١٨) الأصول اليونانية ١: ٥.

(١٩) نفح الطيب ٦: ٤٣١ - ٤٣٢؛ والإحاطة ٤: ٦١٤ - ٦١٦.

(٢٠) الفواق: فترة ما بين الحلبتين، والحرف: الناقة.

(٢١) القبع: الصياح، أو الإعياء والانبهار.

(٢٢) نفح الطيب ٦: ٤٤٤ - ٤٤٥؛ والإحاطة ٤: ٦٣٢ - ٦٣٤.

(٢٣) انظر: كتاب بغداد، لابن أبي طاهر طيفور. (بغداد، ١٩٦٨): ١٥٥ - ١٥٦.

(٢٤) انظر: وفيات الأعيان، لابن خلّكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس. (بيروت، ١٩٦٨). ٥: ١٥٥ - ١٥٦.

(٢٥) انظر مقالة دنلوب المشار إليها آنفاً، ص٥٤.

(٢٦) انظر نماذج من ذلك في الإشارة: ٧٧ (السطر ١٩ - ٢٠) و٧٨ (السطر ٢٠)؛ ونفح الطيب ٦: ٤٣٢ (السطر ١١)؛ والإحاطة ٤: ٦١٥ (السطر ١٠).

(٢٧) انظر: الإشارة: ٧٤، ٨١، ٨٢؛ ونفح الطيب ٦: ٤٤٤ - ٤٤٥؛ والإحاطة ٤: ٦٣٣.

(٢٨) انظر: الإشارة: ٨٠ (السطر الرابع من أسفل الصفحة).

(٢٩) انظر: الإشارة: ٧٦ (السطور الخمسة الأخيرة)، ٧٩ (السطر ٣)؛ ونفح الطيب ٦: ٤٣٤ (السطر ٩ و١٩)، ٤٣٥ (السطر ١٧)، ٤٤١ (السطر ٢ - ٤)، ٤٤٢ (السطر ١٣ - ١٤، ١٩ - ٢١)، ٤٤٣ (السطر ٤).

(٣٠) انظر: الإشارة: ٧٧.

(٣١) انظر: الإشارة: ٨١؛ وفي تعريف أبي عباد، انظر: كتاب الفخري لابن الطقطقي. (دار صادر، بيروت): ٢٢٥ - ٢٢٧.

(٣٢) أسقط ابن الخطيب المقاطع التالية من الأصل اليوناني، كما هو ثابت في كتاب الأصول اليونانية: ١٠ (السطر ٨ وما بعده)، ١٩ (السطر ١١ وما بعده)، و٢١ (السطر ٧ وما بعده)، و٢٢ (السطر ١٣ وما بعده)، و٢٦ (السطر ١٠ وما بعده، والسطر ١٣ وما بعده)، و٢٧ (السطر ٩)، و٢٨ (السطر ٥ وما بعده، والسطر ١٣ وما بعده، والسطر ١٩ وما بعده)، و٢٩ (السطر ١٠ وما بعده)، و٣١ (السطر ٧ وما بعده، والسطر ١٩ وما بعده)، و٣٤ (السطر ١٢ وما بعده، والسطر ١٤ وما بعده)، و٣٥ (السطر ٢٠ وما بعده)، و٤٠ (السطر ٧ وما بعده).

(٣٣) انظر: الأصول اليونانية: ٤٢.

(٣٤) انظر: الإشارة: ٧٢ - ٧٥؛ وكتاب النمر والثعلب، لسهل بن هارون، حققه وترجمه إلى الفرنسية عبد القادر المهيري، (تونس، ١٩٧٣)، والملك في هذا الكتاب نمر، ووزيره، أو عامله، ذئب. وسوف يأتي مزيد من المقارنة بين كتاب الإشارة وكتاب النمر والثعلب في تحقيقي نصّ كتاب الإشارة الملحق بهذا البحث.

(٣٥) الشثن: الغليظ.

(٣٦) انظر في تراجم ابن الخطيب ما ذكر سابقاً من المصادر في الحاشية ١، وانظر أيضاً كتاب المرقبة العليا، للنباهي، تحقيق ليفي بروفنسال (بيروت): ٢٠١ - ٢٠٢؛ والتعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، له، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، (القاهرة، ١٩٥١): ٩١.

(٣٧) انظر : أعمال الأعلام : ٣٠٥ - ٣١٩ .
(٣٨) قارن الفصل « فيا يستشعره الوزير مع المتطلّعين إلى منزلته والحاسدين له » في الأصول اليونانية : ٥٣ ، بالفصل المذكور في كتاب الإشارة : ٨٧ .
(٣٩) انظر : الأصول اليونانية : ٤٨ (السطر ١٥).
(٤٠) انظر : الأصول اليونانية : ٤٨ (السطر ١ - ٢).
(٤١) انظر : الأصول اليونانية : ٤٨ (السطر ١٦ - ١٧).
(٤٢) انظر : الأصول اليونانية : ٥١ (السطر ٣ - ٥).
(٤٣) ظن الدكتور دنلوب أنّ ابن الخطيب حذف الفقرة عن الحاجب ، لأنه « ربما كانت خطة الحجابة غير موجودة ، أو غير مهمة ، في غرناطة آنذاك » (أنظر مقالة دنلوب السابق ذكرها : ٥٤). غير أنّ هذا الكلام غير دقيق ، لأنّ غرناطة شهدت أحد أكبر حجّابها المتنفّذين أيام ابن الخطيب ، وذلك هو « الحاجب المعظّم رضوان النصري » (انظر : الإحاطة ١ : ٥١٤).
وانظر أيضاً : أعمال الأعلام : ٣٠٥ ، وكذلك كتاب :
Rachel Arié, L'Espagne musulmane au temps des Nasrides, (Paris, 1973), p. 516 (pages under «hâgib»).
(٤٤) انظر : الأصول اليونانية : ٤٧ (السطر ١ ، وما بعده).
(٤٥) انظر : الإشارة : ٨٢ (السطر ١).
(٤٦) انظر : الإشارة : ٨٢ (السطر ٣ - ٤).
(٤٧) انظر : الأصول اليونانية : ٨ - ٩ .
(٤٨) انظر : نفح الطيب ٦ : ٤٣٤ ؛ والإحاطة ٤ : ٦١٧ - ٦١٨ .
(٤٩) انظر : الأصول اليونانية : ٤٨ (السطر ٨ - ٩).
(٥٠) نفح الطيب ٦ : ٤٣٤ (السطر ١٣) ؛ والإحاطة ٤ : ٦١٨ (السطر ٧).
(٥١) انظر : الأصول اليونانية : ٤٢ (السطر ٣ ، وما بعده).
(٥٢) قارن بنص الإشارة : ٧٨ - ٧٩ ؛ وانظر أيضاً كتاب عمر المالكي المذكور آنفاً : ٩٥ ، الحاشية ٥ .
(٥٣) هناك نماذج من ذلك في الإشارة : ٧٣ (السطر ١٧) ، و٧٤ (السطر ١١) ، و٧٥ (السطر ١٧ - ١٨) ، و٧٦ (السطر ٢).
(٥٤) انظر : نفح الطيب ٦ : ٤٣٤ - ٤٣٥ ، والإحاطة ٤ : ٦١٧ - ٦١٩ ؛ وقارن بالأصول اليونانية : ٧ .
(٥٥) انظر : نفح الطيب ٦ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ ؛ والإحاطة ٤ : ٦١٨ - ٦١٩ .
(٥٦) انظر : نفح الطيب ٦ : ٤٣٥ ؛ والإحاطة ٤ : ٦١٩ - ٦٢٠ .
(٥٧) انظر : نفح الطيب ٦ : ٤٣٦ - ٤٣٧ ؛ والإحاطة ٤ : ٦٢١ - ٦٢٢ .
(٥٨) انظر : نفح الطيب ٦ : ٤٣٨ - ٤٣٩ ؛ والإحاطة ٤ : ٦٢٦ .
(٥٩) انظر : نفح الطيب ٦ : ٤٣٣ - ٤٣٤ ؛ والإحاطة ٤ : ٦١٦ - ٦١٧ .
(٦٠) الرسالة موجودة في كتاب :
Lopez de Ayala, Crónicas de Los Reyes de Castilla, (Madrid, 1776), I, pp. 483-493.

وأودّ في هذا المقام أن أشكر الصديقة السيدة جلاديس فارونا لايبي لمساعدتي في ترجمة هذا النصّ الإسباني .
(٦١) هناك تلخيص لرسالة « دون بدرو » في المصدر المذكور في الحاشية السابقة (١ : ٤٨٢ - ٤٨٣).
(٦٢) المصدر نفسه ١ : ٤٨٢ .
(٦٣) انظر كتاب محمد عبد الله عنان السابق ذكره (ص٢١٧) ، حيث يرجّح المؤلف أنّ ابن الخطيب لم يكن يعرف القشتالية .
(٦٤) انظر تقرير ابن الخطيب عن هذه الأحداث في كتابه « أعمال الأعلام » : ٣٣٥ - ٣٣٦ ؛ وكتابه الآخر « اللمحة البدرية في الدولة النصرية » (القاهرة ، ١٣٤٧) : ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٧ ؛ وانظر أيضاً : *Crónicas* (١ : ٣٠١ - ٣٠٩) ؛ وكتاب Arié المذكور سابقاً : ١١٢ - ١١٥ .

(٦٥) *Crónicas*, I, P. 486

(٦٦) المصدر نفسه ١ : ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

(٦٧) المصدر نفسه ١ : ٤٨٨ .

(٦٨) المصدر نفسه ١ : ٤٨٩ .

(٦٩) المصدر نفسه ١ : ٤٨٩ .

(٧٠) المصدر نفسه ١ : ٤٩٠ .

(٧١) المصدر نفسه ١ : ٤٩٠ ـ ٤٩١ .

(٧٢) المصدر نفسه ١ : ٤٨٦ .

حواشي تحقيق كتاب « الإشارة إلى أدب الوزارة »

(١) في الأصل : النصير ، وزيادة الواو ضرورية استئناساً بكيفية ورود « الولي » و « النصير » جنباً إلى جنب في القرآن الكريم (أنظر هذه الآيات في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي . تحت كلمة « نصير »).

(٢) في الأصل : اختياره . والتغيير ضروري للسجع .

(٣) الربّ هنا بمعنى السياسة . وربيتُ القوم : سستهم .

(٤) ينجدُ العقب : يجعله نجداً . أي شديد البأس سريع الإجابة إلى ما دعي إليه .

(٥) ناظراً إلى الآية الكريمة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (البقرة ٢٦٩) .

(٦) في الأصل : وضعا .

(٧) هذا من مواطن الشبه بين كتاب الإشارة وكتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون (انظر الحاشية ٣٤ من البحث السابق) : ففضلاً عن أنّ الكتابين يعتمدان على الحيوانات ، فإنهما يشتركان في تسمية « أبطالهما » من الحيوانات هذه بما يتجاوز طريقة كليلة ودمنة ، حيث الحيوانات ذات اسم وكنية (كما هي حال النمر هنا . وكما هي حال عدة « شخصيات » لدى سهل بن هارون : الثعلب يقال له مرزوق ويكنى أبا الصباح ، وصديقه الثعلب أيضاً يقال له طارق ويكنى أبا المغلّس . والذئب اسمه مكابر وكنيته أبو الفراء ـ انظر النمر والثعلب : ٨ ، ١٢ ، ٣٥ ، ٤٠) . ويضيف سهل بن هارون طريقة أخرى في التسمية . إذ يجعل لبعض حيواناته اسماً ونسباً (فالنمر يقال له المظفّر بن منصور ، والنمر الثاني وثّاب بن المنتهش ، والنمر الثالث خدّاش بن عضّاض ؛ انظر الصفحات : ١٣ ، ٣٢ ، ٣٥) .

(٨) سبْن الكفين : غليظهما .

(٩) في الأصل : نشرت .

(١٠) في الأصل : خزّ ، ولا معنى لذلك ؛ والنجد : المكان المرتفع ، والغور عكسه .

(١١) في الأصل : وكرة حور ؛ والكرّ : الرجوع ، والحور : الرجوع عن الشيء وإلى الشيء ؛ وفي الحديث الشريف : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » ، أي من النقصان بعد الزيادة .

(١٢) في الأصل : والتفت ، ولا يجوز لغةً .

(١٣) في عهد الوزير إلى ولده (ص٤٢) أنّ السنّ التي لا يجوز بعدها تولي الوزارة سنّ السبعين .

(١٤) في الأصل : أنّ ، ولا تصحّ دون الواو .

(١٥) السُّطا : جمع غير معتاد لـ « سطوة » واستعمله للسجع .

(١٦) هذا الاستعمال غريب ، فإن القطا لا يضرب بها المثل في الأمن وإنما بالهداية . فيقال « أهدى من قطاة » (أنظر : الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ، لحمزة الأصفهاني ٢ : ٤٢٩ ، تحقيق عبد المجيد قطامش ، القاهرة ، ١٩٧٢ : وجمهرة الأمثال للعسكري ١ : ١٦٧ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ، القاهرة ، ١٩٦٤) . ولعلّ ابن الخطيب هنا يشير إلى مثل آخر أقرب إلى فكرة الدّعة ، وهو : « لو ترك القطا ليلاً لنام » (انظر : فصل المقال لأبي عبيد البكري : ٣٨٤ ـ ٣٨٥ ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧١ : ومجمع الأمثال للميداني ٢ : ٨٢ ، مصر ، ١٣١٠ ، وجمهرة العسكري ٢ : ١٦٩ ، ولسان العرب « قطا ») .

(١٧) ناظراً إلى البيت المعروف :

(١٨) قارن بما قاله الثعلب للنمر عن فضل الدور الذي قام به في النمر والثعلب: ٢٦.

(١٩) البيتان التاليان لأبي العتاهية (انظر ديوانه: ٧٩، تحقيق الدكتور شكري فيصل، دمشق، ١٩٦٩).

(٢٠) الديوان: آذنك.

(٢١) في الأصل: الموت، وأظنه سهواً.

(٢٢) الديوان: آمناً.

(٢٣) سنّ الوقوف هي السنّ التي يصبح ممكناً للمرء فيها تولّي الوزارة، وهي سنّ الثلاثين كما في «عهد الوزير إلى ولده» (ص٤٢).

(٢٤) الكَتَد والكَتِد، وجمعه أكتاد وكتود، مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس، وقيل هو أعلى الكتف، وقيل هو الكاهل، وقيل هو ما بين الكاهل إلى الظهر، وقيل هو من أصل العنق إلى أسفل الكتفين، وقد يكون من الأسد الذي هو السبع، ومن الأسد الذي هو النجم على التشبيه.

(٢٥) اسمه في «عهد الوزير إلى ولده»: «هيكل السلم»، وعرّفه بأنه الهيكل الذي «يجتمع فيه الأفاضل في الدين والمعرفة، المرتضون للرأي فيما يطرأ على المملكة، واستعراض ما يظهر من العلوم في تلك الأزمنة» (انظر العهد: ٤٢).

(٢٦) في الأصل: تعلي عن سوم، ولا معنى لذلك؛ والسوم عرض السلعة على البيع، والعرب تقول: «عرض عليّ سوم عالّة» قال شمر: يضرب هذا مثلاً لمن يعرض عليك ما أنت عنه غنيّ.

(٢٧) من أول الفقرة حتى هنا النص مختصر في «عهد الوزير إلى ولده» (ص: ٤٣)، وهو «أما بعد، فلو استغنى أحد بسداد رأي وزيادة فضل واستشعار مناصحة عن مطالعة موعظة واستعراض تجربة، لكنتَ خليقاً بذلك مستحقاً لمزيّته. لكن فاقة الرجل إلى تأكيد ما قرب منه وبعد عنه بحسب جلالة ما يعانيه، وبمقتضى ما هو بصدده. وقد ندبت يا بنيّ من الوزارة إلى منزلة لا تطمئن بن عاصي رأيه وآثر هواه ورضي عن نفسه. فإن قهرتَ الطارىء عليك والطالب من التنعّم بها والاحتجاز فيها، وجاهدتَ دواعيك إليهما بتعرّف موقعهما وأضرارهما في باطنهما، رجوتُ أن يتذلل لك امتطاؤها، ويصفو بك وردها، ويحسن أثرك عليها وبها».

(٢٨) في الأصل: ورمد بعد ما شوى. ورماه فأشواه: أصاب شواه - أي أطرافه - ولم يصب مقتله.

(٢٩) هذه الفقرة الدعائية وردت نصاً تقريباً في «عهد الوزير إلى ولده» ولكن في خاتمه (ص٥٤).

(٣٠) هذا واحد من التفسيرات الثلاثة التي تطرحها المصادر العربية (الوزر، والأزر، والوزر)؛ انظر أمثلة من ذلك في: قوانين الوزارة وسياسة الملك، للماوردي، تحقيق الدكتور رضوان السيّد، (بيروت، ١٩٧٩): ١٣٧ - ١٣٨؛ والأحكام السلطانية، للماوردي أيضاً (القاهرة، ١٩٦٦): ٢٤؛ وتحفة الوزراء، المنسوب للثعالبي، تحقيق رجينا هاينكه، (مجلة الأبحاث، الجامعة الأميركية في بيروت، العدد ٢٥، السنة ١٩٧٢): ١٤ - ١٥؛ وفي الحاشية في كتاب: «قوانين الوزارة» مصادر أخرى في الموضوع نفسه.

(٣١) هشّ الورق بعصاً ليتحاتّ: أي ضرب الشجر ليسقط ورقه فترعاه الغنم؛ وهذا النص ناظر إلى الآية الكريمة ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهشّ بها على غنمي﴾ (طه: ١٨) - حكاية عن موسى.

(٣٢) حشّ الحشيش: جمعه.

(٣٣) المشّ: مسح اليد بالشيء الخشن ليزيل عنها الدسم.

(٣٤) فشّ القربة: حلّ وكاءها فخرج ريحها.

(٣٥) تشبيه الملك بالطبيب والرعية بالمرضى والوزير بالوسيط بينهما، تشبيه يتكرّر في كتب السياسة عند العرب (أنظر مثلاً: سراج الملوك، للطرطوشي: ١٢٠، الإسكندرية ١٢٨٩، وواسطة السلوك في سياسة الملوك، لأبي حمو الزياني: ٣٤، ١٠٤، تونس، ١٢٧٩)، ولم يرد ما يوازيه في «عهد الوزير إلى ولده».

(٣٦) في الأصل، متانا.

(٣٧) هذا مطلع «عهد الوزير إلى ولده» (ص٤٢)، ونصّه: «كان في السنّة الجارية من اليونانيين تعظيم الوزارة وتفضيلها وانتخاب من صلح لها من سائر الناس بتتبع مواليد من يولد من أبناء العظماء وذوي النباهة والرأي وإثبات أسمائهم عند الثقات الموكّلين بذلك في المملكة، فمن بان عقله وظهر فضله استخلصوه للوزارة».

(٣٨) قارن هذا الفصل بمقابله في «عهد الوزير إلى ولده» (ص٤٢)، وهو هناك أقصر مما هو هنا، وهو أمر يستدعي الاستغراب، والنصّ هنالك: «وكان الوزراء يختارون للمباضعة من الجواري من ظهر فضل تمييزها وسداد سعيها، ولا يجامعون في سكر ولا عند فرح مفرط

ولا حزن مكرث ».

(٣٩) ناظراً إلى الآية الكريمة ﴿وعنت الوجوه للحيّ القيوم﴾ (طه: ١١١).

(٤٠) ليس من قرين لهذا الفصل عن الشروط المطلوب توفّرها في الوزير في « عهد الوزير إلى ولده ». ولكن النص هنا شديد الشبه بما جاء عن الوزير وشروطه في مقامة ابن الخطيب السياسية (نفح الطيب ٦: ٤٣٤)؛ قال في المقامة: « وليكن معروفاً بالإخلاص لدولتك، معقود الرضى والغضب برضاك وصولتك... بعيد الهمّة، راعياً للأذمّة، كامل الآلة، محيطاً بالإيالة، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحيّ والميت، مؤثراً للعدل والإصلاح، دربّاً بحمل السلاح... صحيح العقد، متحرّزاً من النقد ». وقارن شروط الوزير هنا بشروطه في كتاب: سلوك المالك في تدبير الممالك، لابن أبي الربيع: ١٥٥ ـ ١٥٨، تحقيق الدكتور ناجي التكريتي، (بيروت ـ باريس ١٩٧٨)، وتحفة الوزراء: ٢٤ ـ ٢٦؛ والأحكام السلطانية: ٢٦ ـ ٢٧؛ وواسطة السلوك: ٣٢ ـ ٣٤؛ وانظر مقالة الدكتورة وداد القاضي: « النظرية السياسية للسلطان أبي حمّو الزياني الثاني »، مجلة الأبحاث، الجامعة الأميركية في بيروت، (العدد ٢٧، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩)، الصفحة ٩٢.

(٤١) نص كتاب الإشارة هنا قريب جداً من نصّ « عهد الوزير إلى ولده » (ص٤٣)؛ إذ في العهد: « واعلم يا بنيّ أن المملكة البشرية لمّا كان راعيها مركّباً من أركان متعادية وقوى متباينة، وكان كل واحد منها يجذبه إلى ذاته ويميل به إلى ما طبع عليه، لم يكمل لحراسة (؟) ما وكل إليه، واحتاج إلى وزير من أبناء جنسه يتمّم به الاضطلاع بما عراه، فيتيقظ في سهوه، ويجدّ عند هزله، وينوب عنه في أوطانه، ويميط به سوء الظن فيما يؤثر إيراده وإصداره بمظافرته عليه ». كذلك هناك شبه واضح بين نص كتاب الإشارة هنا وبين قول ابن الخطيب في المقامة في السياسة (ص٤٣٤): « وليكن... جادّاً عند لهوك، متيقّظاً في حال سهوك ».

(٤٢) في الأصل: ورافع بضبعه؛ والضبع: العضد.

(٤٣) الفكرة أن على الوزير أن يتمتع بصفات معينة أكثر من الملك فكرة تتكرر في كتب السياسة العربية: انظر مثلاً: الأحكام السلطانية (ص٢٢)؛ وقوانين الوزارة (ص١١٩ ـ ١٢٠)؛ وواسطة السلوك (ص: ٣٣، ١٠٤).

(٤٤) هذه الفقرة وردت حرفياً، تقريباً في « عهد الوزير إلى ولده » (ص٤٣ ـ ٤٤).

(٤٥) هذه قراءة « العهد »؛ وفي الأصل: وتزين.

(٤٦) الفقرة هذه تقارنها في « العهد » (ص٤٦): « واعلم يا بني أنه لا يضبط الكثير من الناس من لم يضبط نفسه الواحدة. فارفع نفسك عن كلب الحرص ودلة الشهوة، وغلّب أفضل قسميك على أحسنهما ».

(٤٧) الكَتَد: الكَتِف، وانظر ما سبق، الحاشية ٢٤؛ وهذه الفقرة لم ترد في « عهد الوزير إلى ولده ».

(٤٨) وردت هذه الفقرة في « عهد الوزير إلى ولده » (ص: ٤٦).

(٤٩) خرف النخل واخترفه: صرمه وجناه.

(٥٠) لم يرد هذا القول في « عهد الوزير إلى ولده ».

(٥١) وردت هذه الفقرة مختصرة جداً في « العهد » (ص٥١)، ومن دون القصة عن أبي عبّاد الوزير؛ قال في « العهد »: « واستعمل التواضع في عزّك وهبوب ريحك، بالصبر على ذوي الفاقة ومعاهدي الشريعة ».

(٥٢) الجبه: ردّ الرجل عن حاجته واستقباله بما يكره؛ والنجه: الزجر والردع.

(٥٣) أبو عبّاد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي: وزر للمأمون بعد أحمد بن يوسف بن القاسم، وكان كاتباً حاذقاً بالحساب سريع الحركات أهوج محمّقاً، وفيه قال دعبل الخزاعي الشاعر:

وكـأنـه من دير هزقـل مفلـتٌ ... حربٌ يجرّ سلاسل الأقيـاد

انظر في أخباره: تاريخ الطبري ٨: ٦٦٠، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار المعارف بمصر)؛ ومعجم البلدان لياقوت الحموي، (دير هزقل)؛ والفخري في الآداب السلطانية، (طبعة دار صادر، بيروت)، ٢٢٥ ـ ٢٢٧.

(٥٤) هذه الفقرة وردت مختصرة في « عهد الوزير إلى ولده » (ص٤٦)؛ قال: « وإذا ساورت عملاً فاقصد إلى تتبّع معظمه دون صغائره، ثم اصمد إليها بعده؛ ولا يشغلك تحصيله عن جملته، فيضيع منك بأسره. ولا تدفعنّ عملاً عن وقته، فإن للوقت الذي تدفعه إليه عملاً آخر، وأقلّ ما يلحقك من إرحام الأعمال دخول الخلل فيها، واعلم أنّ تهيّب العمل يطيل زمانه، والجرأة عليه تثني عن تتبعّه ».

(٥٥) النص في هذه الفقرة شبيه جداً بالنص في « عهد الوزير إلى ولده » (ص٤٦).

(٥٦) في « عهد الوزير »: « فلا تعتلن شيئاً تقلّدته، فيظن بك الخروج عن أفضل طباعك بمقدار ما خرج إليه » (ص٤٦). غير أن ما يلي من هذه الفقرة ـ بما في ذلك الشعر ـ ساقط من « العهد ».

(٥٧) زيادة ضرورية من «عهد الوزير إلى ولده» (ص٤٦). والنقل عنه شبه حرفيّ.
(٥٨) النص موجود حرفياً تقريباً في «عهد الوزير» (ص٤٧).
(٥٩) في الأصل: التكبّر، والتصحيح تمّ استئناساً. بنصّ «العهد»: «واستماعك من مكاثرة من يسمى إليها».
(٦٠) عنوان هذا الركن في «عهد الوزير إلى ولده» (ص٤٧ - ٤٩): «فيما يستعمره الوزير مع الملك»؛ غير أنّ ابن الخطيب ركّب هذا الركن - باستثناءات يسيرة سوف أشير إليها في مكانه - من هذا الفصل، ومن الفصل التالي في «العهد» وعنوانه هناك: «فيما ينبغي للوزير أن يتحرّز منه من تقدم الملك إياه إليه» (ص٤٩ - ٥١). ويمول ابن الخطيب في هذا الركن تميّز إجمالاً بالإبقاء على الأفكار الأصلية، مع بعض التطوير البسيط لها نتيجةً لاستعمال السجع.
(٦١) قارن بعهد الوزير (ص٤٧).
(٦٢) في الأصل: أن تعزز به أكثر من تحملك. ولا معنى له. والتصويب عن «عهد الوزير».
(٦٣) قارن بعهد الوزير (ص٤٧).
(٦٤) قارن بعهد الوزير (ص٤٧).
(٦٥) لم ترد هذه الفكرة في «عهد الوزير إلى ولده».
(٦٦) قارن بعهد الوزير (ص٤٩).
(٦٧) قارن بعهد الوزير (ص٤٩).
(٦٨) قارن بعهد الوزير (ص٤٩).
(٦٩) الرمّ: إصلاح الشيء الذي فسد بعضه.
(٧٠) قارن بعهد الوزير (ص٤٩).
(٧١) لم ترد هذه الفقرة في «عهد الوزير إلى ولده».
(٧٢) وردت القصة أيضاً في عهد الوزير (ص٥١).
(٧٣) هذا الركن منقول - مع بعض التطوير - عن الفصل بعنوان: «فيما ينبغي للوزير أن يتحرّز فيه من تقدم الملك إياه إليه» (ص٤٩ - ٥١)، فكل ما ورد في هذا الركن ثابت هناك.
(٧٤) القَنَم والقَنَمة: فساد الطعام وتغيّر رائحته.
(٧٥) يتابع ابن الخطيب في هذا الركن نص «عهد الوزير» (ص٤٤ - ٤٥) متابعة دقيقة، ولم يضف عليه سوى الفقرة الأخيرة منه «فأجمع هذه الأخلاق أصولاً... وينفذ لك سلطانك».
(٧٦) في الأصل: الأغراض.
(٧٧) وضع في «عهد الوزير إلى ولده» لائحة بهذه الخلال الست عشرة (ص٤٥).
(٧٨) في الأصل: دور، والتصويب عن «عهد الوزير».
(٧٩) في هذا الركن أيضاً يتابع ابن الخطيب نصّ «عهد الوزير» (ص: ٥٣ - ٥٤) متابعة دقيقة مضيفاً بعض التفصيلات الجزئية
(٨٠) في الأصل: حسن.
(٨١) في الأصل: ضلع، والتصويب عن «عهد الوزير».
(٨٢) الحسيفة والحسافة: الغيظ والعداوة.
(٨٣) الحوباء: النفس.
(٨٤) الإذالة: الإهانة.
(٨٥) تصرّف ابن الخطيب في النقل عن «عهد الوزير» في هذا الركن (ص٥٢ - ٥٣ من «العهد» إلا أنه على وجه الإجمال تتبّع الأفكار الرئيسية نفسها فيه. ولكن أهم ما يلاحظ وضعه فقرة عن ولد الملك وكيفية معاملة الوزير له. وهي فقرة لم ترد في الأصل المترجم عن اليونانية. وإسقاطه - في الوقت نفسه - حكاية عن ولد الملك مروية عن أفلاطون (الصفحة ٥٢، السطر الرابع من أسفل حتى الصفحة ٥٣، السطر الثالث من فوق). فكأن ابن الخطيب بذلك يريد أن يبعد الصبغة اليونانية الأفلاطونية لكتابه «الإشارة».
(٨٦) في الأصل: واعلم أنّ من الخاصة مريض... ومتسمّ: ولا يصحّ نحواً: وفي «عهد الوزير» (ص٥٢): واعلم أنّ من خاصة الملك مرتضياً...
(٨٧) في الأصل: مبرلك.
(٨٨) هذه الخاتمة لم ترد بطبيعة الحال في «عهد الوزير» لأنها تابعة للإطار العام الجديد الذي ابتدعه ابن الخطيب لكتاب «الإشارة».